الدروس الدينية

لسنة ١٣٦٢

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

مطبعة الأزهر

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

مولاى صاحب الجلالة

هذا شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . موسم من أكبر مواسم البر والخير يشتد فيه اتصال المؤمنين بربهم وتتحرك فيه عاطفة الخير ، وعاطفة الاحسان ، وقد جرت عادتك فيه على إعزاز كتاب الله وإحياء سنة السلف الصالح من خيار المؤمنين ، تستمع فيه إلى آى الكتاب وتفسير آى الكتاب أعزك الله بدينه وأعز دينه بك ووفقك للخير وأعانك عليه ؟

الدرس الاول

بسم الله الرحمن الرحيم .

« المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون . وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » .

المص : هذه حروف مركبة فى الرسم على شكل كلمة ذات أحرف أربعة لكنها تقرأ بأسماء هذه الحروف ساكنة هكذا : ألف لام ميم صاد .

وقد افتتح الله سبحانه بعض سور القرآن ببعض حروف الهجاء ، وأسماء هذه الحروف لم توضع لمعان غير هذه الحروف ، وأقرب الآراء فى تفسيرها أنها أسماء ألقاب للسور المبتدأة بها ، وعلى ذلك فهذه السورة الكريمة سماها الله سبحانه المص كما سمى غيرها الم ، ون ، وكهيعص ، الى غير ذلك .

« كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » :

حرج الصدر : ضيقه وغمه ، أخذ من الحرجة التى هى مجتمع الشجر المشتبك الملتف الذى لا يجد السالك فيه سبيلا واضحا ينفذ منه . ويطلق الحرج على الشك

أيضا لأن الشك فى أمر لا يكون إلا من ضيق الصدر به وقلة الاتساع لتوجيهه الوجهة الصحيحة ؛ ولذلك اختلف المفسرون هنا فى معنى الحرج ؛ ففسره بعضهم بضيق الصدر ، وحمله بعضهم على الشك ، كما روى عن ابن عباس ومجاهد .

والانذار : التعليم المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة . والذكرى : مصدر ذكر الشيء بقلبه أو لسانه ، والاسم منه الذكر بالضم والكسر .

والكتاب والقرآن : كلاهما يطلق على الكل وعلى البعض ، تقول : سمعت فلانا يقرأ القرآن أو يتلو كتاب الله إذا سمعت منه بعضه .

ومعنى الآية : أن هذه السورة كتاب أنزله الله اليك لتبلغه للناس كافة وتخوفهم سوء عاقبة مخالفة ما فيه من أمر ونهى ، وتذكر به المؤمنين ، فلا يكن فى صدرك ضيق وغم منه ، أو لا يكن فى صدرك شك فى أنه من عند الله سبحانه .

نُهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحرج وضيق الصدر فى القرآن ، والنهى لا يكون إلا عن أمر يتصور وقوعه وهو مظنة الوقوع ، والأمر كذلك هنا من وجهين :

الأول : أن القرآن نفسه عظيم واحتماله عظيم ، وقد قال الله سبحانه فيه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وقال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

وقد كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه الوحى وهو يتفصد عرقا ، وكان يكاد يهيم لشدة وقعه وعظيم تأثيره . وأى قلب يحتمل وصدر يتسع لكلام الله سبحانه ينزل به الروح الأمين إذا لم يتول الله سبحانه شرحه ويتول إعانته على حمله ؟

والوجه الثانى : أنه كلف إبلاغه وهداية الناس به وإصلاحهم ، والمتصدى لذلك لا بد أن يتوقع أذى ومقاومة وعنتا ، وأن يلقى أشد الطعن فى شخصه وفى الكتاب الذى يحمله ، وقد حصل ذلك فعلا حيث لاقى من أهله وعشيرته

وقومه ولاقى من العرب وغيرهم مالاقى ، وقد قال الله سبحانه « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » وقال له « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » وقال « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز أو جاء معه ملك »

نُهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ضيق الصدر على رأى ، أو عن الشك على رأى آخر ، وقد جاء مثل هذا النهى عن الشك فى آية أخرى حيث قال الله سبحانه : « فأن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

وقد جاء النهى على صورة بديعة ، فان النهى لم يوجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الأمر وإنما وجه إلى الضيق فنهى الضيق عن أن يكون فى صدره ، وهو أبلغ من توجيه الخطاب اليه وأرفق ، وكأن الحرج لو كان مما يصح نهيه لوجه اليه النهى ، فانته أنت عنه بعدم التعرض له وبعدم التعرض لأسبابه . ونظيره فى اللغة إذا نهيت شخصا عن أن يكون عندك : لا أرينك هاهنا .

وقد كان حق الكلام أن يكون هكذا : كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه . لكن النهى جاء قبل قوله : لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، اهتماما بأمر نفى الحرج قبل الانذار والتذكير ، فان الانذار لايكون على الوجه الأكمل إلا إذا انتفى الحرج وانشرح الصدر . وشرح الصدر يُشيع فى النفس السرور ، وفى الأعضاء النشاط ، وفى العقل الصفاء ، فيقبل الداعى بعزيمة صادقة وهمة ماضية . وعلى العكس من هذا يفعل ضيق الصدر . وكل عامل فى عمل من الأعمال البدنية أو العقلية فى أشد الحاجة الى توفير همته وصفاء ذهنه ومضاء عزمه وانشراح صدره .

وقد أطلق الله سبحانه الانذار فقال : لتنذر به ، وقيد الذكرى فقال : وذكرى للمؤمنين ، كما قال فى آية أخرى : هدى للمتقين ؛ والسر فيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جامدة جاهلة ركنت الى المادة وقيدتها الشهوات والملذات ، جبلت على الايذاء ، لاتستطيع أن ترى أثر النعمة على الخلق ،

ويلذ لها أن ترى النار تحرق البلاد والعباد ، ويؤلمها أن ترى الناس فى هناء ووفاق ، عاقها طبعها عن الشوق الى مقام القدس واستجلاء الأنوار الالهية من العوالم القدسية ، وعن التعرض لنفحات الحق . ونفوس شريفة مشرقة بجوهرها ، حنينها دائما الى الكمال ، وهمها الوصول الى اللذات الروحية والاتصال بعالم القدس ، والتعرض لتجليات الحق ، وأن ترى الناس فى سعادة يتقلبون فى النعمة .

وبعثة الأنبياء فى حق القسم الأول إنذار وتخويف وترغيب ، فهم فى حاجة الى موقظ ومنبه ومخوف ومرغب ، لا يتركون شهواتهم إن تركوها ولا نقائصهم إن فارقوها إلا فوق نار تأكل الأبدان وتشوى الوجوه وتحرق الجلود كلما نضج جلد بدل بجلد ، وإلا فوق سلاسل وأغلال وحيات ومطارق ، وإلا طمعا فى مأكل شهى ومشرب هنى وخمر لذة للشاربين وعسل مصفى ، الى لذات جسمانية أخرى تضارع لذات الدنيا وتفوقها ، أولئك لا حظ لهم فى إدراك اللذات المعنوية الروحية .

وبعثة الأنبياء فى حق القسم الثانى تذكير وتنبيه ، فان نفوسهم بجواهرها مستعدة للاتصال بالحضرة الالهية ، والتمتع باللذات الروحية ، منجذبة الى الكمال ، لكن هذه النفوس لما اتصلت بالأجسام غشيتها غواش من ظلمة الطبيعة فعرض لها نوع من الغفلة يكفى لازالته سماع الدعوة والتذكير ، وإذ ذاك تذكر شأنها وتشتاق الى ما يناسبها ويليق بها من لذة العلم والمعرفة ولذة التمتع برضوان الله ، وتجد فى ذلك روحها وريحانها وراحتها وأمنها واطمئنانها ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وقد قال الله سبحانه: لتنذر به ، ولم يذكر من ينذرهم ، للاشارة الى أنه تذكير الناس أجمعين ، وأن رسالته عامة للخلق . وقد صرح بهذا فى آية أخرى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

« اتَّبِعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتَّبعوا من دونه أولياء ، قليلا ماتذكرون » :

فى الآية السابقة طلب من النبى صلى الله عليه وسلم الأنذار ، وفى هذه الآية ذكر الأنذار العام الموجه الى الناس وهو طلب اتباع ماأنزل الله سبحانه ، وأتبعه بعد ذلك بالتهديد والتخويف ، كما سيظهر بعد فى الآيات التالية .

ذكر هنا اسم الرب سبحانه عند طلب اتباع ما أنزله الله ، وذلك لأن اسم الرب فيه معنى التربية والتدبير والعناية بمن يربيه ويدبره ، والمربى يعطى من يربيه حظه فى كل طور من أطوار حياته ، يلاحظ جسمه فيعطيه الغذاء الصالح اللائق به ، ويمنعه عن كل شىء يؤذيه ، ويعده للتعليم بقدر ما تحتمله حواسه وقواه ، ويلاحظ عند نمو العقل عقله فيعطيه من المعارف مايليق به ، ويتدرج معه من البسيط الى المركب ، ومن السهل الى الصعب ، ويعده للحياة فى المجتمع ، ويهيئ له بيئة سليمة من النقائص والمعايب ، بعيدة عن الأحقاد ، ويربيه على أن يعيش مع الناس فى مودة ووفاق ، يرحم الفقير البائس ، ويعطف على المسكين ، ويغيث المضطر . هكذا يفعل المربى الصالح . والله سبحانه هو المربى الخالق القادر العالم الحكيم .

وقد جاء الدين القيم وفيه نظام تربية الأجسام ، ونظام تربية النفوس وتربية العقول ، أحل للناس الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وحرم الاسراف فى كل شىء وطلب القوام ، ووضع لهم قواعد الأخلاق لإصلاح المجتمع ، وفى القرآن الكريم من هذه النظم ما لو عمل الناس به لعاشوا فى الجنة وهم فى الدنيا .

وحرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وبين العقائد الصحيحة فى عالم الغيب بما لا يصل العقل إليه ، وطلب الى الناس العلم والمعرفة ، وزهدهم فى التقليد والشك .

هذا شأن المربى الحكيم العليم ، فكل نظام من نظمه صالح ، لأنه هو المربى العليم ، لا يجوز أن يتحلل الناس منه ولا أن يتبرموا .

ففى الأديان نظام للبدن ، و نظام للروح ، و نظام للمجتمع ، و الله غنى العالمين . وقد دلت الشواهد على أن فى العمل بها سعادة ، وفى تركها شقاء . وسيظهر ذلك كلما محصت الفتن الخلق ، وهذبتهم النـوائب والشدائد ، ونبهتهم المصائب . وسيتبين أن ذلك هو الحق ، وأن المصير إليه ، فيه السعادة والسلام ، وفيه الشفاء من الأسقام ، وفيه الدواء من أدواء الأنام . والله حسبنا ونعم الوكيل .

طلب الله سبحانه اتباع أوامره ، ورفض اتباع أوامر غيره ، ونهى عن أن يتخذ من غير الله أولياء يأمرون بغير ما أمر وينهون عن غير ما نهى ، ويحللون ما حـرم ويحرمون ما حلل ، ويلوون آيات الله الى غـير وجهها ؛ يفسرونها طبقا لأهوائهم وأغراضهم ، ويبتدعون فى دين الله ما ليس منه ، يزيدون عليه وينقصون أطرافه كلما دعتهم الشهوة وحركتهم الأغراض ، فيتخذون آيات الله هزوا ولعبا ، ويجعلونها بضاعة تجارة إن راجت تمسكوا بها وإن لم ترج أعرضوا عنها .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق المـدبر ، وكان هو الرب المربى عباده طبقا للعلم والحـكمة ، كان وحده الحقيق بالولاية ، وكان وحده الأحق بالاتباع ، الله وحده ولى الذين آمنوا : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » ، « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض » .

والولاية التى تفرد الله سبحانه بها ولاية الخلق والتدبير ، وولاية الرحمة والثواب وكل شأن من شئون الآخرة فهو مالك يوم الدين ، وولاية وضع النظم للانسان فيما هو غيب ، من حقه وحده أن يحلل ويحرم ، ومن حقه أن يضع نظم الجماعة البشرية .

فـكل شخص حرم ما أحله الله أو حلل ما حرمه الله فقـد جعل نفسه ربا ، وكل شخص اتخذ هذا وليا فقد اتخذه ربا .

لله حق التحليل والتحريم ، وللأنبياء التبليغ عن الله ، وللعلماء التبليغ والبيان عن رسل الله ، يبينون الـكتاب بالسنة وأعمال السلف الصالح ،

ويفهمونه كما تفهم الأساليب العربية بعد إعداد أنفسهم لهـذا بالوسائل الحقة الصحيحة ، يجردون أنفسهم للحق ، ويخلصونها من العصبية والأهواء ، أولئك هم ورثة الأنبياء .

أما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فهى ولاية إرشاد وتعاون ، وتواد وتعاطف وتراحم ، يكونون وحدة اجتماعية للذود عن الدين والوطن . وأما ولاية أولى الأمر وقادة الأمة فهى ولاية تنفيذ دين الله ، ونفى الفساد والبغى من الأرض ، والارشاد الى مافيه صلاح العباد فى الدنيا والدين، يطاعون ما أطاعوا الله سبحانه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، عليهم حماية العقيدة الاسلامية، والأخلاق الاسلامية ، والشرائع الإلهية . ذلك واجب عليهم للجماعة ، ولهم منها الطاعة بعد ذلك .

« قليـلا ما تذكرون » :

يعنى تذكراً قليلا تتذكرون ما يجب أن يعلم فـلا يجهل ، وأن يحفظ فلا ينسى ، وقليلا ما تتعظون بالعظات .

هذا هو شأن الانسان ؛ تحيط به النعمة ويغمره الاحسان فينسى الله ، وتصيبه النقمة فيتذكر الله « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ، « وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ، « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولـكن أكثرهم لا يعلمون » .

« وكم من قرية أهلـكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين » :

القرية : مجتمع الناس ، ولا تسمى قرية إلا وفيها مساكن لأهلها وسكان منهم . والبيات : الاغارة على العدو ليلا والايقاع به على غفلة . والقائلون : هم الذين يستريحون فى النهار وقت القائلة وإن لم يناموا . والبأس : الشدة والقوة والعذاب الشديد . والدعوى : من معانيها القول .

لما أمر الله سبحانه باتباع أوامره حذرهم فى هذه الآية والآية التى بعدها عاقبة المخالفة وجزاء المخالفة . والعصيان منه ما هو دنيوى ، ومنه ما هو فى الدار الآخرة .

وفى هذه الآية تحذير العقاب الدنيوى ، وهو التحذير من النقمة تحل بالقرى فتهلك ، ومن البأس والعذاب يحل بأهلها فيبيدون .

يقول الله سبحانه إنه كثيرا ما أهلك القرى وأنزل عليهم نقمته وعذابه بسبب العصيان ومخالفة النظام الالهى ، فبعض القرى جاءها العذاب ليلا ، وبعض القرى حل بها العذاب نهارا وقت الراحة ، فما كان دعواهم وقولهم إذ جاءتهم أسباب الهلاك وعاينوها وأيقنوا بوقوعه إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ، معترفين بالذنب مقرين باستحقاق العقوبة ، ولا يظلم ربك أحدا .

عقوبة الأفراد على المعصية لا تطرد فى الدنيا وتطرد فى الآخرة ، وعقوبة الأمم على المعاصى تطرد فى الدنيا والآخرة ، يشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا خفيت الخطيئة لاتضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت ولم تغير ضرت العامة » .

وعصيان الأمم على ضربين : عصيانها بمخالفة أوامر الله سبحانه وشرائعه ، وعصيانها بمخالفة السنن الكونية الشاملة للأنواع ، فما من نوع إلا أوتى السلاح الذى به يحافظ على نفسه ، وأوتى بالغريزة والفطرة قوة المحافظة على الفرد والنوع ، وقد أوتى الانسان قوة عقلية وقوة مادية ، فاذا أهمل ماتوجبه الغريزة فقد ضل ، وإذا همل ما يوجبه الدين فقد ضل .

وهلاك الأمم على ضربين : هلاك مادى وفناء ظاهر ، وهلاك معنوى وفناء أدبى ، ولكل أمة أجل ، والآجال والمواقيت تختلف باختلاف أحوال الأمم فى القوة والضعف والقلة والكثرة .

فمن الأمم أمم بادت بالغرق ، وأمم بادت بالصواعق ، وأمم بادت بالزلازل والبراكين ؛ ومن الأمم أمم ذلت بعد العز ، وافتقرت بعد الغنى ، وضعفت بعد

القوة ، وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وخادمة بعد أن كانت مخدومة ، وجاهلة بعد أن كانت عالمة ، ورعية بعد أن كانت راعية .

إذا فسقت أمة عن أمر ربها ، وضاع منها الحياء من الله ومن الناس ، واسترسلت فى الشهوات ، وغرقت فى اللذات ، وفشا فيها الظلم ، ولم يقف القوى عند حدود الله ، واغتال أموال الضعفاء والفقراء ، واختل النظام وزال الأمن ، وفقدت الرحمة على البائس والمسكين واليتيم والمحروم ، وانحلت قواها وفسد الأمر فيها ، وتمزقت وحدتها - حق عليها الهلاك ، وجاءها أمر الله وعذابه ليلا أو نهارا ، أو هلكت هلاكا معنويا ففقدت استقلالها وأضاعت كيانها .

والتاريخ شاهد ، والحوادث ناطقة ، والقرآن الصادق يقص الخبر ويسوى العبر . وللأمم علاج ولها طبيب ؛ أما طبيبها فهو الله سبحانه ، وأما علاجها فهو القرآن ، فما عليها إلا أن ترجع الى هديه ، وتثوب الى رشده ، وتحافظ على تعاليمه ، وتتدبر معانيه وأغراضه وتعمل بها ، وتقلع عن الغى والفساد ، وعن الظلم والطغيان ، وعن حياة الشهوات واللذات ، وتستمتع بحياة روحية ، وتذوق لذة العلم والمعرفة والهدى والتقوى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

جرينا فى تفسير الآية على أن الأهلاك على ضربين : منه بأس بالليل ، ومنه بأس بالنهار ، وعلى ذلك فالبأس هو الأهلاك ، والأهلاك هو البأس . أجمل ثم فصل ، ففى ذكر الأهلاك دلالة على البأس ، وفى ذكر مجىء البأس الدلالة على الأهلاك .

قال أبو جعفر : وإذا كان ذلك كذلك كان سواء عند العرب ، بدىء بالاهلاك ثم عطف عليه البأس ، أو بدىء بالبأس ثم عطف عليه الأهلاك ، كقولهم : زرتنى فأكرمتنى ، إذا كانت الزيارة هى الأكرام سواء عندهم تقديم الزيارة وتأخير الكرامة ، أو تقديم الكرامة وتأخير الزيارة ، فتقول : أكرمتنى فزرتنى أو زرتنى فأكرمتنى ، وحرف أو هنا للتفصيل .

فان قيل : أقالوا إنا كنا ظالمين قبل الهلاك فيكون قولهم قبل مجيء البأس ، أو بعد الهلاك فتلك حالة قد هلكوا فيها ؟ قيل ليس كل الأمم كان هلا كها فى لحظة ليس بين أوله وآخره مهل ، وقد يظهر سبب الهلاك ويتيقن به قبل حصوله ويكون هناك وقت يكون فيه القول « إنا كنا ظالمين » .

« فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » .

يسأل الله الأمم ماذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل من عند الله ؛ هل عملوا بما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه ؟ ويسأل الله الرسل ؛ هل بلغوا أو قصروا ؟ وجاء فى سؤال الرسل « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » ، « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ، «ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا سبحانك ما كان ما ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » .

يسأل الله سبحانه هؤلاء وهؤلاء ، ثم يقص عليهم عن علم تام كل ما وقع من الفريقين ، فانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وما كان غائبا عنهم فى وقت من الأوقات ولا فى حال من الأحوال ، وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا .

هذا السؤال هو الحساب ، ثم يتلوه الجزاء ، وليس هو سؤال استرشاد واستخبار ، بل هو سؤال تقرير وإعلام وإنكار وتوبيخ فى حق الأمم ، أما فى حق الرسل فليكون جوابهم شهادة على أممهم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وفى الحديث الشريف «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فأعدوا للمسائل جوابا . قيل وما الجواب ؟ قال : أعمال البر » . وعنه صلى الله عليه وسلم « لا تزول

قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه . كل الناس مسؤول : الامام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها » .

تضمنت هذه الآية سؤال الأمم ، غير أنه جاء فى آيات أخرى أنه لا يسأل أحد ، مثل قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » ، وجاء فى آيات أنه لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ، ومنه قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » . وقيل فى الجواب عن ذلك : إن للقيامة مواقف متعددة ، فمواقف فيها السؤال ، ومواقف لا سؤال فيها بل يصرف كل أحد الى المكان الذى يستحقه ، « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » . وقيل إن المنفى هو سؤال الاسترشاد لأن الله غنى عن أن يعرف أحوال الناس من الناس ، والمثبت هو السؤال المؤلم المخزى ، كما يقول الرجل لمن صنع معروفا ثم أنكره : ألم أحسن اليك ، ألم أصلك ، ألم أدفع المكروه عنك ؟ .

« والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

الجزاء على حسب الأعمال ، وهى تتفاوت ، وإنما تضبط بالوزن ، والله سبحانه يعطى كل واحد جزاء عمله بالعدل والقسط « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » « ولا يظلم ربك أحدا » « وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

والأصل فى الوزن أنه عمل يراد به تعرف مقدار الشىء بآلة هى الميزان ، لكنه يطلق على العدل أيضا ، ومنه قوله تعالى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

وللمسلمين رأيان فى الوزن : الأول : أنه العدل التام فى تقدير ما به يكون الجزاء . وقد نقل ذلك عن مجاهد والأعمش والضحاك من مفسرى السلف ، وعليه جمهور المعتزلة . قال الراغب : والوزن يومئذ الحق : إشارة الى العدل فى محاسبة الناس ، كما قال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » والتجوز بالوزن والميزان فى كلام العرب كثير . والرأى الثانى : أن هناك ميزانا حقيقيا

ووزنا حقيقيا ، وعليه أكثر العلماء ، وهم بعد مختلفون فى أن الأعمال هى التى تودع فى الميزان أو أن صحائف الأعمال هى التى تودع فى الميزان ، وفى أن هناك موازين متعددة لكل واحد ميزان ولكل عمل ميزان ، أو أن هناك ميزانا واحدا للجميع .

ومعنى الآية على كل حال : والوزن فى ذلك اليوم الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم هو الحق الذى تحقق به الأمور وتعرف به حقيقة كل واحد وحقيقة ما يستحقه من الثواب والعقاب .

فمن ثقلت موازينه ، يعنى رجحت موازين أعماله بالايمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والفائزون بالنعيم فى دار الكرامة .

ومن خفت موازينه ؛ أى شالت كفة ميزانه ولم ترجح بسبب كفره وعصيانه وكثرة سيئاته فأولئك الذين خسروا أنفسهم وأضاعوها وحرموها ما كان ينبغى أن يكون لها من الفوز والنعيم ، وهم لم يخسروها إلا بسبب ظلمهم وكفرهم بآيات الله ؛ فقوله تعالى : يظلمون ، هنا ، معناه يكفرون . وفى آية أخرى « إن الشرك لظلم عظيم » .

وقد أشارت الآية الى فريقين : فريق المؤمنين الناجين ، وفريق الكافرين الخاسرين . وهناك فريق آخر وهم أهل الأعراف، وسيأتى ذكرهم فى آيات أخرى.

ولا شك فى تفاوت أفراد كل فريق ، وأن بعض الأفراد أشد رجحانا من الآخر فى فريق المؤمنين ، وبعض الأفراد أشد خسرانا فى فريق الخاسرين .

نسأل الله أن يجعلنا من الفائزين المفلحين ، إنه سميع الدعاء .

الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم .

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلَفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين . فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

جاءت هذه الآيات إثر تمهيد طويل سيقت فيه أخبار أمم خلون ، وبينت فيه دعوة الرسل وعلاقاتهم مع هذه الأمم ، وما لقى الرسل من جحود وعناد ، وما أصاب الأمم من القوارع والمحن بسبب هذا الجحود والعصيان .

وفى هذا القصص عبرة وعظة ، وفيه تحذير من الوقوع فى مثل ما وقعت فيه تلك الأمم ، حتى لا يقع من العذاب مثل ما وقع عليها ، وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه من الأذى والعناد ، ليثبت على الدعوة ويقوى ويصبر .

وبعد هذا القصص الذى يعد النفوس لقبول الحق ، ويقوى الهمة لامتثال التكاليف ، طلب الله سبحانه الاستقامة ونهى عن الطغيان والظلم ، وطلب العبادة والصبر ، وهذا هو كل الدين على طريق الاجمال .

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير » :

قيل إنه لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم آية فى القرآن أشد من هذه الآية . وروى عنه أنه قال : « شيبتنى هود وأخواتها » .

والاستقامة : السير على الطريق المستقيم ، وهو الدين القيم الذى ابتعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من عقائد وأخلاق وعبادات وشرائع ، فهى كلمة جامعة لكل مايتعلق بالعلم والعمل . ومن الأمور المطلوبة منه صلى الله عليه وسلم ما هو خاص به مثل تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة . ومنها ما هو مطلوب منه ومن أمته مثل الصلاة والصيام والحج وما الى ذلك من التكاليف العامة . ومعنى « ومن تاب معك » أى وليستقم من تاب عن الكفر ورجع عنه وصار معك ، وليحافظ على ما أمر به ، وليؤده كما أمر به .

أمر صلى الله عليه وسلم وأمر أتباعه بالاستقامة ، ونهوا عن الطغيان وهو تجاوز الحد إما بالأفراط وإما بالتفريط ، فليس لهم أن يحلوا حرامه ولا أن يحرموا حلاله ، وليس لهم أن يغلوا فى الطاعات ، فأن الغلو مذموم ، كما أن التفريط مذموم و « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » «ألا وإن هذا الدين غض طرى ، ألا فأوغلوا فيه برفق» . ليس لهم أن يبدلوا كيفية عبادة ، وليس لهم أن يجتمعوا على عبادة لم يجتمع عليها سلف الأمة ، وليس لهم أن يتجبروا وأن يتكبروا ، وأن يكونوا للناس سادة ، وأن يتخذوا الناس عبيدا ، وليس لهم أن يظلموا أحدا وأن ينالوه فى ماله أو نفسه أو عرضه ؛ كل هذا طغيان نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه ونهيت أمته .

وبعد أن أمرهم بالاستقامة ونهاهم عن الطغيان ، حذرهم العاقبة وخوفهم نفسه فقال «إنه بما تعملون بصير» فهو عليم به وشاهده لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى عليه . والآية تدل على وجوب اتباع النصوص كما هى فى العقائد والعبادات ، وعلى وجوب اجتناب الرأى فيها ، والله سبحانه هو الذى طلب الشىء وطلب أن يكون كما أمر به ، هو العليم بمعانى كلامه ، فاذا لم تكن المعانى اللغوية مما يشهد لها صريح العقل وجب أن يفوض الأمر فيها إلى الله ، والله سبحانه حدد طريقة عبادته ، فليس لأحد أن يدخل الرأى فيها . وفيما عدا العقائد والعبادات مما وضع لاصلاح الاجتماع ونظام الأمم تتبع النصوص ، وتطلب المدارك ، ويصح

القياس والاجتهاد ، وتوضع النظم فيما لم يرد فيه نص ، على أن يكون كل نظام غير مخالف لأغراض الكتاب .

«ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» :

الركون إلى الشيء : السكون إليه والميل اليه بالمحبة والاستناد والاعتماد عليه .

معاضدة الظالمين ومناصرتهم وحبهم ركون اليهم ، وتحسين أعمالهم لهم وتزيينها للناس ركون اليهم ، والاعتماد عليهم والانتصار بهم ركون اليهم ، وموالاتهم ركون اليهم ، وإقرارهم على الظلم فى الأعمال العامة ركون اليهم ؛ وكل ذلك منهى عنه ، وقد جعل الله جزاءه النار .

وإذا كانت النار جزاء الذى يركن الى الظالم ، فكيف يكون حال الظالم نفسه ؟ ! والغرض من هذه الآية تقبيح الظلم والتنفير منه والنهى عنه بهذا الأسلوب القوى المنفر من الظلم والظالمين . وقد أخبر الله سبحانه أن الذين يركنون الى الظالمين لايجدون أولياء وأنصارا يخلصونهم من النار ، وأن الله سبحانه لايغفر لهم ولا ينصرهم . وهذا معنى قوله : «وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» .

وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين» :

إقامة الصلاة أداؤها على الوجه الأكمل وإدامتها .

بعد أن أمر النبى بالاستقامة ونهى عن الطغيان ، أمر باقامة الصلاة التى هى أعظم العبادات ، وهى الوسيلة التى يستعان بها على امتثال الأوامر واجتناب النواهى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وهى العبادة المذكرة بالمعبود ، والتى يستحضر فيها جلاله وجماله وعظمته ومجده .

وطرفا النهار : الغداة والعشى ، أو البكرة والأصيل . والزلف : ساعات من الليل قريبة من النهار . وقد أجمعوا على أن صلاة الغداة هى صلاة الفجر ،

واختلفوا بعد ذلك فى صلاة العشى التى تقع فى الطرف الثانى ؛ فقال بعضهم هى صلاة الظهر والعصر ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك ومحمد بن كعب القرظى ، وعلى ذلك تكون الآية مشتملة على الصلوات الخمس : الفجر فى الطرف الأول ، والظهر والعصر فى الطرف الثانى ، وصلاة الزلف من الليل وهى صلاة المغرب والعشاء .

وقال أبو جعفر : أولى الأقوال عندى أن الصلاة التى فى الطرف الثانى هى صلاة المغرب ، لأنهم حين أجمعوا على أن الأولى صلاة الفجر وهى تقع قبل طلوع الشمس ، وجب أن تكون الثانية هى المغرب لأنها تصلى بعد الغروب .

وعن الحسن : بين الله سبحانه مواقيت الصلاة فى القرآن فقال «أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل» ودلوك الشمس زوالها عن كبد السماء حيث يكون لها فىء فى الأرض فهى صلاة الظهر ، وقال : « وأقم الصلاة طرفى النهار » وهى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم قال «وزلفا من الليل» والصلاة المقصودة بذلك صلاة المغرب والعشاء . وعنه صلى الله عليه وسلم « زلفتا الليل المغرب والعشاء » .

وقد اختلف العلماء فى الحسنات المرادة فى هذه الآية ؛ فقيل إن المراد بها الصلوات الخمس ، وروى ذلك عن مجاهد والضحاك وابن عباس لقوله صلى الله عليه وسلم «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن» ، ولقوله «مثل الصلوات الخمس مثل نهر جار على باب أحدكم ينغمس فيه كل يوم خمس مرات فماذا يبقين من درنه»؟ ويقرب هذا المعنى أن قوله : إن الحسنات يذهبن السيئات ، جاء عقب الأمر بإقامة الصلاة ، والوعدُ على إقامتها بالخير الجزيل من الثواب أولى من الوعد به على شىء لم يجر له ذكر من الأعمال الصالحة غيرها . وقيل إن الحسنات هنا عامة ولا شك أن الصلاة من أكبر الحسنات ، كأنه قيل أقم الصلاة لأنها حسنة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات . والمراد من السيئات هنا صغار الذنوب ، والحسنات يذهبنها إذا اجتنبت الكبائر .

وقوله تعالى : «ذلك ذكرى للذاكرين» معناه أن ذلك الوعد الذى وعدت به من أقام الصلاة ، والوعيد الذى أوعدت به على الطغيان ، تذكرة ذكرت بها

أقواما يذكرون الله ، ويخافون عقابه ، ويرجون ثوابه . أما الذين طبع الله على قلوبهم فلا يجيبون داعياً ولا يسمعون زاجراً .

« واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » :

الزم الصبر على ماتلقاه من أذى قومك ، وعلى ماتسمعه من المكروه . والصبر أفضل الأخلاق وأكمل الحسنات ، ينال به الظفر ، وتدنو الغايات ، وتتحقق المقاصد ، و« الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل يوفر لهم الجزاء وهم أحوج مايكونون إليه .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية يَنهَوْن عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتَّبَع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين » :

لولا للتحضيض مع الأسف والتفجع الذى يقع عادة من البشر ، على هذه الأمم التى لم تهتد ، بل غرقت فى الضلالة حتى هلكت . ونظير ذلك : « ياحسرة على العباد ، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

والمعنى أن هذه الحالة من شأنها أن توجد الأسف والحسرة ، وأن يتمنى المرء أنه وجد فى هذه الأمم خيار لهم عقل وحزم ينهون عن الفساد فى الأرض ، ويعتبرون بالآيات ، ويتدبرون الدلائل ، ويعرفون ما يكون لهم بالإيمان ، وما يكون عليهم بالكفر والعصيان .

يقال : فلان من بقية القوم أى خيارهم ، وأصل ذلك أن الرجل يبقى مما يخرجه أجود ما عنده وأفضله ، فصار مايبقى مثلا فى الجودة .

وقوله : « إلا قليلا » معناه : لكن كان منهم خيار قليلون نهوْا عن الفساد فى الأرض ، ولذلك نجاهم الله سبحانه من العذاب ، وأهلك الأكثرين . ومعنى « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » : أى اتبعوا الشئ الذى أترفوا فيه من نعيم الدنيا ولذاتها ، وآثروه على أعمال الآخرة ، وتجبروا وتكبروا ، وتركوا الحق ، فصاروا بذلك مجرمين .

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » :

فسر بعضهم الظلم هنا بالشرك ، ومنه قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . والمعنى على ذلك : أن الله لا يهلك القرى بسبب الشرك إذا كان أهلها متبعين قواعد العدل والإنصاف ، سائرين على المنهج القويم فى الحكم وفى إصلاح الأرض واستثمارها وجنى منافعها . وقيل : إن المعنى أن الله لا يهلك القرى ظلماً منه إذا كان أهلها مصلحين ، وإذا أهلكها فهو يهلكها لفساد أهلها وبغيهم وظلمهم ، والله سبحانه منزه عن الظلم ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » :

عند ما وجد الانسان على الأرض كان يعيش عيشة البداوة ، لا هم له إلا أن يحفظ نفسه من عاديات الأنواع الأخرى ، ومن قسوة الطبيعة ، ولا يفكر إلا كيف يعيش ، ليس لديه من المعلومات والمعارف ما به ينظر فى العلل والمعلولات وفى الحق والباطل ، وتدرج بعد ذلك فى التفكير ، وطرق النظر ، فوُجد الاختلاف ؛ وهذا الاختلاف طبيعى فى نوع الانسان ، مثل اختلاف أمزجته فى الطعام والشراب وما يحب ويكره . وليس حاله كحال الملائكة خلقوا بطبعهم عارفين عابدين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » ، ولا لجماعة النمل أو النحل ألهمت نوعا من النظام تسير عليه . وقد كان الله سبحانه قادرا على أن يخلق الانسان كما خلق الملائكة وكما خلق النمل يسير على نظام ملجئ يجعله متفقا فى الدين والعقيدة والرأى والعمل ، ولكنه لم يخلقه هكذا ، بل خلقه مختارا مريدا متمكنا ، وخلقه مفكرا مدبرا ، ووكله الى قواه من عقل وإرادة واختيار بعد أن أرشده ونصب له الأدلة من الكون ، وأقام له البينات فى ألواح الوجود ، ثم أتم عليه النعمة ، وأكمل المنة ، وأرسل الرسل تترى ، وأنزل الكتب فيها الهدى وفيها الحق ، وفيها الرشاد ، وهذا كله من شأنه أن يوجد الاختلاف . فالناس على هذا لا يزالون مختلفين فى وجود الخالق ، وفى إرسال الرسل ، وفى طرق العلم ، ولا يزالون مختلفين فى الأديان ، بل وفى الدين الواحد ، منهم من يفسره على الحق ، ومنهم من يفسره

على الباطل ، ومنهم من يغلو ، ومنهم من يفرط ، لا يستثنى من ذلك إلا طائفة أدركها الله بلطفه وأعانها ، فهديت الى الدين الحق ورضيته ، وهديت الى التفسير الحق ورضيته ، ودامت على الحق فى الرأى والخلق والعمل ، واعتصمت بحبل الله .

هذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » .

وقد قلت إن الاختلاف فى الرأى والعقيدة مثل الاختلاف فى الأمزجة لازم من لوازم خلق النوع الانسانى على ما خلق عليه ، فهو صائر الى الاختلاف لا محالة ، وكأن الله خلقه لهذا الاختلاف ؛ لذلك قال الله سبحانه : « ولذلك خلقهم » .

وقد قضى الله سبحانه بعد أن بين للإنسان طريق الخير وطريق الشر وأتم نعمته عليه من إقامة الأدلة فى السموات والأرض ومن إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وبعد أن وعد الطائعين بالرحمة والثواب والنعيم ، وأوعد العصاة بالنقمة والغضب والعذاب الأليم — أن يكون الناس والجن فريقين : فريق الطائعين ينعمون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفريق الأشقياء يعذبون فى جهنم تلفح وجوههم النار ، وهذا القضاء هو كلمة الله التى تمت ولا راد لها ، ولا معقب لكلمته ولا لحكمه .

وهذا معنى قوله سبحانه « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

« وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » :

والمعنى : ونقص عليك يا محمد كل نوع من أنباء الرسل مما نثبت به فؤادك ونقويه ونجعله ثابتا كالجبال الراسيات ، لا تزعزعه الخطوب ، ولا تنال منه المحن والنوائب . وهذه الأنواع هى الأخبار الخاصة بملاقاتهم مع أممهم

فى تبليغ الدعوة الى الدين الحق ، ومحاجتهم بالأدلة القاطعة ، وما لقى الرسل من هذه الأمم من عناد وجحود وجدل بالباطل ، ومافعله الله بهذه الأمم من إهلاك العصاة وإنجاء الطائعين . ولم يقص الله سبحانه من أنباء الرسل الأخبار الخاصة بهم ، والأخبار التى لاعلاقة لها بالدعوة ، والتى لاتفيد عبرة وعظة وتنبيها ، ومثل هذه الأخبار الخاصة توجد فى غير القرآن .

هذه القصص تدل على مالقى الرسل من العناد والجحود والاسراف فى العصيان والعدوان ، وتدل على أن الرسل مع هذا كله صبروا وثابروا ونجحوا فى الدعوة الى الواحد المعبود ، وبلغوا المقصود ؛ فبهذا تقوى عزيمة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبت ، ويحمله ذلك على الصبر والمثابرة ، وعلى تشمير ساعد الجد فى التبليغ واحتمال الأذى . وقد قال له فى آية أخرى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ، وهذه الأنباء قصت الأمور كما وقعت من غير تحريف ومن غير زيادة ، ففيها الحق ، واشتملت على كل ما دعا إليه الرسل من توحيد الله وإفراده بالعبودية ، ومن إقامة العدل فى الأرض ، وإصلاح الجماعة البشرية ، ونفى البغى والفساد والطغيان ، وهذا كله حق جاء فى هذه الأخبار ، وفيها تخويف وموعظة ، وفيها تذكرة للمؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .

« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون » :

أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار اعملوا على مكانتكم ؛ أى على حالتكم التى أنتم عليها وعلى الطريقة التى أنتم عليها ، وإنى عامل على مكانتى وطريقتى وحالتى ، وانتظروا ما أنتم منتظرونه من فشل دعوتى وحبوطها ، ومن موتى قبل أن أتم الدعوة وقبل أن يسيح الاسلام فى الأرض ، وقبل أن أظفر بهدم الأصنام وإزاحة الشرك ؛ وإنى منتظر ما وعدنى الله سبحانه به من تمكين الدين ، ومن الأمن والطمأنينة بعد الخوف ؛ ومنتظر أن أمحو

الشرك ، وأكسر الأصنام ، وأطهر الأرض منها ؛ ومنتظر أن أعمرها بالتوحيد والاخلاص لله . وفى هذه الآية من القوة فى التثبيت ما يزيد على التثبيت الذى حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من ذكر أخبار الأولين ، وفيها تهديد قوى للمشركين لا شك أنه أفعل فى فت عضدهم وكسر شوكتهم من كل تهديد .

«ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون» :

علم ما غاب فى السموات والأرض لله وحده ، وإذا كان يعلم ما خفى وغاب ، فهو يعلم ما ظهر وحضر ، وكيف لا يعلم كل ذرة فى السموات والأرض وهو الذى خلقها وقدرها وأرادها ؟ فعلمه محيط بكل كلى وكل جزئى ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وإليه يرجع كل شىء فى السموات والأرض ، لأن كل شىء فيها محتاج الى مدد الوجود منه فى كل لحظة ، ولو أنه انقطع عنه الفيض ما بقى ، فقدرته شاملة كما أن علمه شامل ؛ لذلك من حقه وحده ان يعبد ، ومن حقه وحده أن يتوكل عليه ، فانه لا يستطيع أحد غيره أن يضر أو ينفع ، وهو غير غافل عن أعمال عباده بل محيط بها ويعلمها .

وهذه الخاتمة من أجل خواتم السور ، وصف الله سبحانه نفسه فيها بأكمل الصفات الثبوتية ، وهى العلم الشامل ، والقدرة الكاملة ، وهما منبع الخير والنعمة على العالم ، وبهما يتجلى جلال الحق وجماله . وقد جاءت آيات الأنعام مفصلة لهاتين الصفتين أكمل تفصيل : «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه

لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون. قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

الانسان فى حاجة الى معرفة الله ،ومعرفةُ الله بحقيقتهوكنهه غير ميسورة، فهو إنما يعرف بصفاته ، ومن أجلّ صفاته صفتا العلم والقدرة ؛ وكما أنه فى حاجة الى تكميل نفسه بالمعارف فهو فى حاجة إلى تطهيرها من الأدران ، وإلى وصلها بعالم القدس ، وذلك يكون بالعبادات البدنية ، وبالعبادات الروحية ؛ وأفضل العبادات البدنية بالحركات الصلاةُ ، وبالسكون الصوم ، وأنفع البر الصدقة . والعبادة الروحية تأمل وفكر فى عجائب الصنع ، وتدبر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ولا تكون العبادة خالصة إلا بأفراده وحده بالتوجه والقصد وطرح كل ما فى الوجود من المخلوقات ، وذلك هو الاخلاص فى العبادة ، المطلوب بقوله سبحانه: « إياك نعبد » .

وإخلاص العبادة لله ، وهو ثمرة التوحيد ، ينتج ثمرة أخرى فى الأعمال هى التوكل على الله سبحانه ، وهو المطلوب بقوله : « وإياك نستعين » .

ومعنى « توكل عليه » اجعله وكيلا ، فإنك إن جعلته وكيلا وجدت الى الخير سبيلا ؛ والله يقول « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » أى كافيه وراعيه ، وقال « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » والعزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بحماه ، والحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .

والتوكل ثمرة من ثمرات الايمان ، وثمرات التوحيد ، فاذا اعتقد شخص أنه الواحد القهار الفعال لما يريد ، وأنه هو الرازق ذو القوة المتين ، وأنه الحكيم العليم ، انصرفت نفسه عن الأغيار ، واتجه بكليته الى الواحد القهار، وأيقن أنه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وأنه الذى ينزل

الغيث ، وينبت الزرع ، وبيده مقاليد كل شيء . والوكالة تستدعي الثقة بالوكيل والطمأنينة اليه ، واعتقاد القدرة فيه وعدم التقصير .

وله درجات تتبع قوة الايمان والمراقبة ، فمن الناس من يكون حاله كحال الصبي مع أمه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع الى أحد سواها ؛ ومن الناس من يرضى بحاله ولا يفزع ولا يدعو ولا يتضرع اعتقادا منه بأن الله يطلبه وإن لم يطلبه ، ويفتح عليه أبواب الخير وإن لم يحرك مغاليقها ، وهو مقام يسكت فيه المؤمن عن الدعاء ، ويصرف النظر عن الأسباب .

وليس التوكل منافياً للأسباب جميعها ، فان ترك الأسباب جميعها نقض للشريعة وترك للسنة ، والذى لا يحرث الأرض لا تنبت أرضه زرعا ، والذى لا يسقيها لا تنبت له زرعا ، فالأسباب والسنن التى ربط الله بها مسبباتها لا يجوز إغفالها ، والتمسك بها لا ينقض الوكالة ، فان الموكل يقدم البينات والحجج للوكيل ، وهى أسباب ، وذلك غير مناف للثقة به والطمأنينة اليه ؛ والله يقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » والطير تتوكل على الله ، وهى تغدو خماصا وتروح بطانا ، وتلك أسباب سنها الله . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصا وتروح بطانا » .

لكن الذى ينافى التوكل هو الاعتماد على الأسباب الموهومة ، أو الاعتماد على الأسباب الطبيعية مع ترك الاعتماد على الله .

والعبادة هى التى تذكر المعبود وتثمر التوكل ؛ لذلك ذكرت العبادة قبل التوكل ، وكانا معاً ثمرة الاعتقاد بأن لله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله . وعلى كل حال فالمطلوب من المؤمن أن يعتقد أنه لا أحد من الخلق يضر وينفع إلا بإذن الله ، وأن يكون حاله دائما حالة المطمئن الواثق بالله الذى لا يدعو أحداً غيره فى جلب الخير ودفع السوء ، وألا يتمسك إلا بالأسباب التى سنها الله ، وليس منها اتخاذ الواسطة بين العبد والرب ، وهو أقرب إلى الانسان من حبل الوريد .

إخوانى : قيل إنه وقف على تحرير القبـلة فى هذا المسجد المبارك (١) سبعون من صحابة رسول الله ، فنحن فى مقام ترفرف منه علينا أرواح الشهداء من المجاهدين الأولين ، وتوحى الينا العبرة والعظة بتذكر ماضى الاسـلام ، ومجد الاسلام ، وعظمة الاسلام .

أسأل الله جلت قدرته أن يوفق ولاة الأمر من المسلمين إلى الوحدة والتآلف والتآزر ، وإلى طرح الغل والحقد ، والى ضم شتات المسلمين وجمع كلمتهم فى الرأى والعقيدة والقصد والعمل ، والى طرح الأنانية ، ونبذ الشهوات .

وأسأله أن يلطف بعباده جميعهم ، فإنه ربهم جميعهم ، وأن يرحم الأطفال الرضع والشيوخ الخشع ، ويرفع غضبه ونقمته ، ويفيض رحمته .

وأسأله أن يرعى برعايته ، ويلحظ بعنايته صاحب الجـلالة ملك مصر الفاروق المعظم ، ويوفقه للخيرات ، وللتمسك بكلمة الله ، وإعزاز دين الله .

---

(١) مسجد عمرو بن العاص حيث ألقى الدرس

تصحيحات

في دروس سنة ١٣٦٢

ص	س	خطأ	صواب
٤	٩	فوق نار	خوف نار
٤	١٠	فوق سلاسل	خوف سلاسل
٥	٢١	بما لا يصل	مما لا يصل
٨	٢	والعصيان	والعقاب
٩	٩	ويسوى	ويسوق

وفي سنة ١٣٦٣

ص	س	خطأ	صواب
١٣	٢١	في مقدمات	من مقدمات
١٧	٢٠	حين اقتضته	حسبما اقتضته
٢٢	١٨	فلتنظر أمة من التي	فلتنظر الأمم التي
٢٤	١٨	يراد قدر الله	براد قدر الله
٢٥	٢١	مساس الناس	مساس النار

الدروس الدينية

لسنة ١٣٦٣ هـ

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

مطبعة الأزهر

١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م

الدرس الاول

بسم الله الرحمن الرحيم :

قال عز من قائل :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

ليس فى استطاعة البشر - مهما جهدوا - إحصاء ما فى الاسلام من حسنات وما انطوى عليه من جمال ، ولا الاحاطة بمدى أسرار ذلك النور الذى أنزله الله هدى ورحمة للناس .

ولئن فات الناسَ اليوم إدراكُها واستقصاؤها فسيبيّن العلماء على توالى القرون ومر السنين للناس من أمرها الشيء بعد الشيء ، وسيكشف العلم وقواعد الاجتماع عنها الشيء بعد الشيء ، وإذ ذاك يدرك العالم بهاء الاسلام وما حواه من نظم سعدت باتباعها أولى الجماعات الاسلامية ، وهو كفيل باسعاد أخراها كما سعدت أولاها ، وهو كفيل باسعاد البشر أجمع الى أن يبلغ الكتاب أجله ، ويأذن الله بأن تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

قرر الاسلام فى العقائد ما هو الحق فى ذاته وما شهدت عليه كتب الكون ، وطهر العقيدة فى الله بالتوحيد الخالص فى الألوهية والربوبية وإبعاد الوسطاء بين العبد وربه ، فكل الناس - متى خلصت له أعمالهم - أمام بابه سواء .

وقرر من العبادات ما هو مذكر به ، وما هو رياضة للنفس ورياضة للجسم ، وما فيه نفع الجماعة الانسانية ، وأشعر العباد بأنها ليست تكاليف فحسب وإنما هي علاج لأمراض المجتمع إذا مرض ، ومكسبة للمناعة من الأمراض إذا صح ، يرشد الى هذا قول الله عز وجل :

« ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غني حميد » ، وقوله عليه السلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

فالعقائد ليست إلا تقريرا للحق الثابت ، والعبادات ليست إلا علاجا للبشر .

وقرر في نظام الجماعة ما سوى به بين الناس ، فليس في الاسلام أن تفضل أمة أمة ، ولا عنصر عنصرا ، وليس في الاسلام جماعة مختارة دون جماعة .

فما الحسب والنسب ، وما كرم الموطن والمولد ، وما كثرة العشيرة وكثرة المال موازين للتفاضل بين الناس « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وعنه عليه السلام « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . بهذا أشعر الانسان بعزته ، وفتح له أبواب الأمل ، ووصله بالعالم العلوي يستمد منه القوة ، ويستمد منه النور ، ويصل بجده واجتهاده الى ما هو مستعد له ، ويصل بالطاعة الى منازل المقربين والصديقين .

أما النظم الأخرى وراء هذا ، فمن الواضح أنها نظم لبقاء النوع الانساني سليما من الأمراض ، قريبا من السعادة ، بعيدا عن الضغائن والأحقاد ، بعيدا عن الفساد ليؤدي الانسان ما هيء له من الخلافة في الأرض التي أنشأه منها واستعمره فيها .

ومن الخير للناس أن يتدبروا هذا ، وأن يتقبلوا النظام الاسلامي على أنه الدواء الذي يصفه الطبيب الحاذق الماهر المحب لقصاده وطلابه ، لا التكليف الذي لا يقبل إلا خوف العذاب ورجاء الثواب .

ونظام الاسلام إذا قبل على هذا الوجه ، وعلى أنه محصل للثواب ومبعد للعقاب ، خف على النفس وأحبته وأقبلت عليه إقبال المريض على الدواء ، وحرصت على أن تؤديه كاملا ، وأن تراعى الأمانة فيه ، فلا تتطلب الحيل للافلات منه ، ولا تعامله معاملة الرسوم المفروضة التى تؤدى كيفما اتفق .

ومما أفاده الناس من الاسلام أصلان عظيمان ، عليهما تبنى عزة الأمم والأفراد ، وبهما ينال كل مجد ثمرة جده ، وكل عامل ثمرة عمله ، ويصل كل ذى حق الى حقه ، وبهما تسعد النفوس وتطمئن القلوب .

هذان الأصلان هما : الالزام بأداة الأمانة ، والالزام بالعدل ، اللذان اشتملت عليهما هذه الآية الكريمة « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

أفراد النوع الانسانى بعضهم فى حاجة الى بعض يتبادلون الأملاك والثمرات ومنافع الأعمال ، ولا يستقيم أمر المعاملات والمعاوضات إلا إذا كانت الأمانة ملاكها وحاكمة عليها ، قادة ومقودين ، سادة وعبيداً ، رؤساء ومرءوسين ، خاصة وعامة .

ويطرأ الفساد على المجتمع بقدر ما تضعف الأمانة ويضعف سلطانها على النفوس ، وإذا فقدت اختل النظام وفسد أمر الجماعة ، وقد يؤدى ذلك الى الفناء .

ومن الطبيعى فى النوع الانسانى أن يحصل الاختلاف والتنازع عن عقيدة أو عن غير عقيدة ؛ فهو فى حاجة الى حكومة تقوم برجال يلون الأعمال من جند وحفظة ، يضربون على أيدى السفهاء ، ويحافظون على الأنفس والأعراض والأموال ؛ ورجال يهذبون الأمة ويبصرونها بمختلف ألوان الحياة ومختلف العلوم والفنون ؛ ورجال يقومون على حفظ الدين وبيانه للناس ؛ ورجال يجبون الزكاة والخراج ؛ ورجال ينفقون أموال الأمة فى وجوه البر والخير ومرافق الحياة . كل هذه الأعمال فى حاجة الى الأمانة وفى حاجة الى العدل .

فالأمانة والعدل دعامتان يقوم عليهما بناء المجتمع ولا تسعد أمة من الأمم إلا بهما ، ولا تنال الكرامة إلا بهما ، وإذا فقدتا من أمة فقدت كل شيء وكانت كالجسم لا روح له ، وفرقتها الأحداث وعمها الشقاء .

والأمانة اسم للشيء الذى تؤتمن عليه مع الاطمئنان الى الوفاء وعدم الخوف ، يقال ائتمن فلانا عده أمينا أو اتخذه أمينا . وكما تكون الأمانة بعقد قولى تكون بكل ما يدل على الائتمان من قول أو عمل أو عرف أو قانون، يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » .

والمعترف بدين من الأديان تحمل أمانة ذلك الدين بمجرد الاعتراف به ، وكل شيء يؤديه مما يطلب ذلك الدين فهو أمانة أداها ، وكل شيء يتركه منه خان الأمانة فيه . والمقيم فى قطر له قوانين لاتخالف قواعد الاسلام احتمل أمانة تلك القوانين ووجب عليه أداؤها . وكل عضو فى الجماعة الانسانية يعيش بينها ، وفى الوسط الذى يعيش فيه عرف وعادات لا تخالف شريعة الاسلام ، عليه أن يؤدى للجماعة ما تواضعت عليه ، ويعتبر ما تواضعت عليه أمانة عنده .

فالأمانة حق عند شخص لنفسه أو لغيره أودع عنده بعقد أو بغير عقد ليقوم بوفائه . فالمال المودع أمانة ، والدين أمانة ، والقانون أمانة ، والآداب العامة أمانة ، والعلم أمانة ، كل ذلك يجب الوفاء به ، لقوله تعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » . قال الامام الرازى : « الأمانة ثلاثة أقسام : أمانة العبد مع ربه ، وأمانة العبد مع الناس ، وأمانة الانسان لنفسه ؛ فأمانة العبد مع الله هى ماعهد اليه حفظه والقيام به من استعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه الى الله ،ومن القيام بما أمره واجتناب مانهاه عنه .

فاللسان لا يستعمل فى محرم ؛ من كذب وغيبة وخديعة ونميمة وكفر وبدعة وفحش ؛ والعين لا تنظر الى محرم ؛ والسمع لا يصغى الى الكذب والفحش . وهكذا الحال فى جميع المشاعر وجميع الأعضاء يجب أن تستعمل فى

الحلال وما أباحه الله ، وألا تستعمل فى محرم نهى الله عنه . والأمانة مع العباد رد الودائع وأداء الديون وترك الغش وعدم التطفيف فى الكيل والوزن ، وستر عيوب الناس ، وستر أسرارهم ، وترك الأضرار بهم ، وعدم الايذاء بالهمز واللمز .

ومن الأمانة للعباد عدل الحكام وإنصافهم للناس ، وقيام العلماء بنشر العلم والدعوة الى الله وتعليم الناس دينهم الحق على طريقة تدعو الى الوحدة وتبعد عن التفريق .

وأمانة الانسان لنفسه أن يختار لها ما هو أنفع وأحكم فى الدين والدنيا من علم نافع ، وكسب طيب ، وعبادة تقرب الى الله وتبعد من سخطه وغضبه .

وقد عظم الله أمر الأمانة فى مواضع كثيرة من كتابه ، وشنع على الخيانة فى مواضع كثيرة من كتابه : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » ، وجعلها من خصائص المؤمنين فقال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، وقال عليه السلام : « لا إيمان لمن لا أمانة له » ، وقال : « ثلاث يؤدين الى البر والفاجر : الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم » وقال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وحج واعتمر وقال إنى مسلم : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وقال : « لن تزال أمتى على الفطرة مالم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما » .

أما العدل فهو تحرى المساواة والمماثلة بين الخصمين . والمادة فى جميع تصاريفها تدل على المساواة . وقد ورد فى العدل آيات كثيرة وأحاديث كثيرة : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » ، « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ، « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وقال عليه السلام : « لاتزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت ، وإذا استرحمت رحمت »

فالقيام بالقسط وأداء الأمانة شعار الجماعة التى يحبها الله ، وهو الغاية من التكاليف . ولم يجعلهم أمة وسطا شهداء على الناس ، ولم يجعلهم خير أمة أخرجت للناس إلا بعقائدهم الطاهرة وعباداتهم الخالصة وأخلاقهم القويمة وأماناتهم وعدلهم . والحكم بالعدل وظيفة الامام الأعظم ونوابه على الطريقة التى يرسمها ، وحق الامام فى الحكم مستفاد من الأمة ، وحق الولاة والوالى مستفاد منه ، وقد تستفاد ولاية الحكم برضا الخصوم وهو التحكيم .

وبعد أن أمر الله بأداء الأمانة وبالعدل قال : « إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا » يعنى نعم الشىء الذى يعظكم به ذلك الشىء الذى أمركم به وهو أداء الأمانة والحكم بالعدل .

ثم حذرهم عاقبة الإهمال فقال « إن الله كان سميعاً بصيراً » .

يعنى أنه لا يخفى عليه شىء من الترك أو التقصير ، فلا تدعوا الأمانة ولا تقصروا فيها ، ولاتدعوا العدل ولا تقصروا فيه ، فإنه محاسبكم ومجازيكم لا يخفى عليه شىء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

الأمر بأداء الأمانة أمر لكل واحد من الأمة بأداء كل أمانة ، لايختص به الولاة ولا تختص به طائفة من الطوائف ؛ الولاة يؤدون الأمانة لمن ولوا أمرهم فى حقوقهم وما ائتمنوا عليه من أمورهم ، يعدلون بينهم فى القضية ، ويقسمون بينهم بالسوية ، لا يظلمون أحدا ولا يستأثرون بحق ، ولا يخونون فى مال ، ولا يحابون صديقا أو نصيرا ، ولا يضرون أحدا لعداوة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » .

والرعية تنصح الولاة وتخلص لهم عند المشورة ، وتتلطف فى ردهم الى الحق إذا انحرفوا عنه .

وكل واحد من الناس مطالب برد الودائع والعوارى ، وشهادة الحق

وعدم الغش ؛ ومطالب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ومطالب باجتناب الزور والفحش ؛ ومطالب بصيانة الأموال والأعراض ، فلا القربى ولا صلات الرحم ولا الصداقة ولا المناصرة تحل التمييز والتفضيل ، ولا العداوة ولا الخلاف فى الرأى يحل الإجحاف ويبيح الظلم .

جاء قاتل زيد بن الخطاب أخى عمر إلى عمر وافدا ، فلما رآه عمر قال : إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! فقال : أو ما نعى ذلك حقا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : لا أبالى إذاً ، إنما يبكى على الحب النساء !

كل الناس أمام الولاة سواء لا يفضل أحد على أحد إلا بعمل جليل أو علم نافع .

***

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »

بعد أن أمر الله بأداء الأمانة وأمر بالعدل فى الحكم بين الناس ، بيّن فى هذه الآية مصادر التشريع فى الاسلام ، فلم تترك الآية مصدرا من المصادر التى استقر عليها الأمر بين الأئمة واستقرت عند المسلمين .

وكما تحتاج كل أمة الى ولاة وقضاة يحكمون بالقسط وينفذون الأحكام ، كذلك تحتاج كل أمة الى قانون له السلطان على النفوس يكون هو المرجع عند الاختلاف والتنازع ، ويكون الفيصل عند الشجار ، تحميه الأمة بسلطانها وتردع كل من يحاول الافلات منه ويحاول الخروج عليه وعدم الطاعة لأحكامه .

من القواعد المقررة عند المسلمين أن الحاكم هو الله رب العالمين : « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه » « وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

مرد الحكم إلى الله وحده ، وإلى الطرق التى أرشد اليها فى هذه الآية الكريمة ، وقد ذم الله من اتبع غيره ومن فرق دينه بغيا وعدوانا ، قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فى القانون الاسلامى عصمة من الخطأ ؛ فكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو المصدر الأسمى من مصادر التشريع ، وهو فى المقام الأول لا يعدل عنه متى وجد نص للحادث فيه . وفى السنة المطهرة المنقولة نقلا صحيحا موثوقا به عصمة ، لأنها وحى قولى أو عمل أقر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى فى المكان الثانى بعد كتاب الله .

والكتاب والسنة تحيط بهما العصمة إذا كانت نصوصهما واضحة لا تحتمل خلافا عند الفقهاء بأسرار الكتاب والفقهاء بأسرار العربية ، وهذان المصدران هما المقصودان بقول الله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

لم يشتمل الكتاب الكريم ولا السنة المطهرة تفصيلا إلا على بعض قواعد العدل ، لكن قواعدها العامة يمكن على ضوئها أن توضع القواعد فى كل زمان وكل موطن بما يناسب ذلك الزمان وذلك الموطن ، وبما فيه مصلحة الناس ومصلحة الجماعة الانسانية مع ملاحظة عرف الناس وعاداتهم والضرورات التى طرأت عليهم ، ومع ملاحظة اليسر الذى هو أخص صفات هذه الشريعة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

لذلك أرشد الله سبحانه الى مصدر ثالث من مصادر التشريع ألزم اتباعه وطاعته كما ألزم اتباع الكتاب والسنة ، وهذا المصدر هو المشار اليه بقوله جل شأنه : « وأولى الأمر منكم » هذا المصدر هو الينبوع الفياض ، يسد حاجة الأمة الاسلامية فى التشريع . والامام الرازى يقرر أنه مصدر معصوم من الخطأ حيث يقول « أمر الله بطاعته وطاعة رسله وطاعة أولى الأمر على سبيل

الجزم ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم يجب أن تكون له العصمة » .
ويرشد الى قول الفخر الرازى ما اشتهر عند المسلمين من أنه لا تجتمع الأمة على ضلالة ، وقول الله تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ، وساءت مصيرا » .

فتشريع أولى الأمر هو تشريع الأمة الاسلامية ، وهو سبيل المؤمنين ، فيجب أن تكون له العصمة من هذا الطريق .

وقد ذهب الناس فى تفسير أولى الأمر مذاهب . وقد اختار الرازى أنهم أهل الحل والعقد وأطال فى بيان مذهبه والرد على مخالفيه بما فيه كفاية ومقنع .

وأهل الحل والعقد كلمة استعملها علماء الكلام وغيرهم فى باب الامامة العظمى ، وقرروا أنهم زعماء المسلمين الذين تتبع الأمة رأيهم ولا يخالفون عند اتفاقهم ، وأنهم مصدر السلطة تصدر عنهم صفة الامامة والخلافة لامام المسلمين وخليفتهم .

فهم أهل البيعة من العلماء والفقهاء والأمراء ورؤساء الجند والقبائل والعشائر . وعلى الجملة هم الذين يمثلون الأمة الاسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض وعن سائر المؤثرات ، ويمثلون طوائفها المختلفة ، فهم أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع ، وأهل الدراية بمصالح الأمة وما يوافقها .

واتفاق أهل الحل والعقد ، أو أهل العلم والرأى والدين ، هو الذى يسمى إجماع المسلمين ، وهو الركن الثالث من أركان التشريع يصار إليه حيث لا توجد نصوص الكتاب والسنة ، وحيث يعرض الاختلاف فى نصوص الكتاب والسنة ، فهو الذى يحسم الخلاف ويظهر رأيا على رأى ، ويحتم اتباع رأى دون رأى ، ويوجد القواعد التى يرجع اليها عند الفصل فى الخصومات ، ويوجد النظام الذى تلزم به الأفراد والجماعات .

وعند التنازع بين أولى الأمر سن الله طريقا لحسم النزاع هو الرجوع

الى قواعد الدين العامة ، وتلمس الأسباب والعلل وقياس الحوادث على نظائرها وأشباهها .

وهذا معنى قوله : «فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول» . وتلمُّس الأسباب والعلل ومقارنة الحوادث هو ما سمى عند الفقهاء بالقياس الذى جعلوه مصدرا رابعا من مصادر التشريع . وعَرْضُ الخلاف على قواعد الدين العامة وقياس الأمور بأشباهها يقوم به أولو الأمر باختيار طائفة من أهل البصر والفقه ، وأهل الرأى والعقل ، تبحث الأمور وتعرضها على أولى الأمر .

هذا كله ، وهو وضع النظم والقوانين بواسطة أولى الأمر والبت فى أمور الخلاف ، إنما يكون فى قوانين التعامل وفيما يعرض الفصل فيه على الولاة والقضاة .

أما العبادات وما لا يرجع فيه الى القضاة والولاة فأمره هين ؛ كل مجتهد يجب عليه العمل برأيه ، وكل عامى عليه أن يقلد من يختاره من المجتهدين . لكن قوانين التعامل لا يجوز أن يترك أمرها فوضى . وقد جرت عادة الأمم الاسلامية أن تولى القضاة المجتهدين ليعملوا برأيهم ، وأن تولى القضاة المقلدين وتلزمهم برأى إمام من الأئمة ، ولم نتبع كتاب الله سبحانه الذى فرض طاعة أولى الأمر وجعلهم مصدرا من مصادر التشريع ومصدرا لحسم الخلاف ، وقد جر ذلك الى فوضى والى أن ضج الناس من القضاة ومن الفقه ، فحدث ما حدث فى الأمة الاسلامية من جنوح الى غير التشريع الاسلامى ، وحدث ماحدث من جمود الفقه الاسلامى وتعطيله حتى صار من الآثار المتوارثة ليس له فى الحياة إلا نصيب ضئيل فى بعض قضايا الأسر .

ومن أول الواجبات أن يعرف الناس القانون الذى يتعاقدون عليه ، والذى تجرى عليهم أحكامه عند النزاع . ومن أول الواجبات أن يكون للقانون صفة القدسية والخصائص التى توجب الاطمئنان اليه ، وهذه الصفات لا تتحقق فى الفقه الذى جمع من آراء أفراد ، ولا تتحقق إلا على الطريقة التى ارتضاها

الله سبحانه وأمر بها ، والطريقة التى أمر بها هى اتباع كتابه وكتابه معصوم ، واتباع أولى الأمر فيما لا نص فيه ورأيهم معصوم .

كل هـذه أمور يقدسها المسلمون اتباعا لأمر الله من جهة ، وجريا مع سلامة العقل والفطرة والعادة من جهـة أخرى ، فليس أحق بالتقديس من كتاب الله ، وليس أحق بالتقديس من حكم جاء على لسان رسول الله ، وليس أحق بالتقديس بعد ذلك من حكم محصه أهل الحل والعقد ورضيه أهل الحل والعقد للأمة .

وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

يعنى أن الذى يطيع هذه الأوامر ، فيطيع الله ورسوله ، ويطيع أولى الأمر ، ويرد المتنازع فيه الى الله ورسوله ، هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخـر ؛ لأنهم هم الذين يعرفون الله ويعرفون شمول علمه وحكمته وأنه لا يريد لعباده إلا الخير ، وهم الذين يخافون غضب الله وعذابه ، ويخافون العقاب فى اليوم الآخر « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » فيبادرون الى امتثال أوامر الله واجتناب ما نهى عنه .

ثم قال : « ذلك خير وأحسن تأويلا »

أى فاتباع هذه الأوامر خير ، واتباع هذه الأوامر أحسن تأويلا ، وعاقبة للمسلمين الذين يعلمون أن لا سعادة لهم ولا لجماعتهم إلا فى اتباع ما رسم الله من حـدود وما شرع من قانون ، وأن الانسان مهما سما تفكيره ومهما ارتقت طرق علمه قاصر عن أن يدرك المصلحة إلا فى حـدود عقله الانسانى الضيق الذى يفهم الأمور فى مقدمات ونتائج وضعها هو واصطلح عليها وتعارف بها قد تخطئ وقد تصيب ، ولـكن العليم الخبير هو الذى رسم للناس المصالح على وفق ما رآه لسعادتهم الأبدية دينا ودنيا ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم السر والنجوى ؟

الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل :

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جُفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » .

الوادى : هو المنخفض عن الجبال والتلال الذى يجرى فيه السيل . والقدَر والقدْر : مبلغ الشىء ومقداره . والزبد الرابى : الرغوة الطافية فوق الماء وما تجمع فيها من غثاء . والحلية : ما يتحلى به . والمتاع : كل شىء يستمتع به من آنية وسلاح وأداة حرث ونحوها . والمثل : كلام يشبه مضربه بمورده ، وكثر استعماله فيما يفيد عبرة وعظة ، وهو المقصود هنا .

فى الآيات السابقة على هذه الآية ذكّر الله عباده بأنه رفع السموات بغير عمد ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، ودبر الأمور جميعها بحكمته ، وفصل الآيات الكونية بقدرته ، ومد الأرض وأرساها بجبالها وتلالها وجعلها صالحة لسكنى العباد من الأناسى ، وسكنى أنواع الحيوان المسخرة لهم ، ورزقهم فيها بما يقيم أودهم ، ويقوم حياتهم من الأنهار والثمرات المختلفة . وكل هذه دلائل باهرة ، وآيات ناطقة على أنه الخالق وحده ، ومستحق العبادة وحده ، ويستحق التوجه إليه وحده . ولا يجوز عند ذوى الألباب والعقول أن يتخذوا آلهة غيره ، عاجزة عن الخلق ، عاجزة عن حماية نفسها ، عاجزة عن دفع الضرر عنها وعن غيرها ، عاجزة عن إيصال النفع إليها وإلى غيرها .

فليس لهذه الآلهة خلق يشبه خلقه حتى يكون هناك عذر قائم فى التشابه وفى اتخاذها آلهة . وضرب الله مثلا لهؤلاء المشركين بالعمى ، ولضلالاتهم بالظلمات ، وضرب الله مثلا للمؤمنين بالمبصرين ، ولهديهم وعقائدهم بالنور .

وفى هذه الآية ضرب أمثلة أخرى للحق بالماء والذهب والفضة يتخذ منهما الحلية ، وبالنحاس والحديد والصفر وغير ذلك من المعادن يتخذ منها المتاع . وضرب أمثلة للباطل بالزبد فوق الماء ، وبالزبد يخرج من المعادن ، وهو الخبث الذى يخرج منها بإيقاد النار عليها ، ثم تبقى بعد ذلك خالصة ينتفع بها .

ينزل الله الماء من السماء على الأرض ، فيتجمع فى الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال ، ويسيل فيها ويحمل فى جريانه مايصادفه من حطام ومن مواد تخالط الأرض ، وهذا الذى يحمله الماء ويطفو فوقه ، هو الزبد الرابى الذى لا خير فيه ، ثم يقذفه السيل وتدفعه الرياح الى جوانب الوادى والى أصول الأشجار ، ويبقى الماء صافيا خالصا يكون شرابا للناس والأنعام ، وتروى منه الأرض فتزرع وتنبت أطيب الثمرات من حب وفاكهة ، وتنبت الأب ترعاه الأنعام ؛ ويسلك بعض الماء فى الأرض فتتفجر منه العيون الصافية وتمتلىء منه الآبار والجبوب ، والماء كله نافع وكله مفيد وكله خير ، والزبد كله لا فائدة فيه ولا خير منه ، والماء هو الأصل ، والزبد عارض عليه ، كما أن الحق هو الأصل ، والباطل عارض عليه .

هذا هو المثل الأول ، والمثل الثانى هو أنواع الفلزات والمعادن ، فالذهب والفضة يوقد عليهما فى النار فيخرج زبدهما وهو الخبث الذى فيهما ، ثم يتخذ منهما الحلية وفيها فائدة للناس ، وفيها بقاء ، وفيها بهاء وجمال .

والحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليها فى النار فيذهب خبثها وهو زبدها وتبقى المعادن بعد ذلك نقية يتخذ منها أنواع المتاع ، وفى المتاع فائدة وفيه بقاء وفيه خير ، ولا خير فى الخبث والزبد ولا بقاء .

فهذه المعادن على اختلافها أمثلة للحق فى بقائه وفائدته وبهائه وجماله ،

وفى الزبد الخارج منها أمثلة للباطل وخبثه وشينه واضمحلاله وزواله ، وهذه المعادن هى الأصول ، وخبثها عارض ، كما أن الحق أصل والباطل عارض .

ولا يظنن أحد أن الباطل قد يطول أمره ولا يزول سريعا كما يزول الزبد من الماء ، وكما يزول الخبث بإيقاد النار ، لأن الحديث إنما يدور مع أولى الألباب وأهل البصائر ، ومع من لم يُعْمهم الهوى وتضلهم الشهوات ، وهؤلاء ينكشف لهم الأمر سريعا عند التوجه والالتفات ويدركون الحق ، فهم كالسيل ، والرياح تدفع الزبد عن الماء ، وكالنار تدفع الخبث عن الذهب والفضة والمعادن .

أما الذين أضلهم الله وعميت بصائرهم وختم الله على قلوبهم فهؤلاء بعيدون عن إدراك الحق ، بعيدون عن فضيلة النظر ، ولذة العلم ، والتماس الهدى . وليست الأمثلة مقصورة على الدين والقرآن بل هى عامة شاملة يراد بالحق فيها كل ما هو حق من دين وعلم ونظام ، وبالباطل فيها كل ما هو باطل من عقيدة وعلم ونظام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغرض منها هو القرآن ، فقال : أنزل من سماء كبريائه ماء هو القرآن فسال فى أودية القلوب واستقرت فيها أنوار علوم القرآن ، كما يستقر الماء فى الأودية ، وحمل كل قلب من هذه المعارف والأنوار بقدره . وهذه المعارف الإلهية الربانية قد تختلط بها الشكوك والشبهات كما يعلو الزبد فوق الماء ، ثم لا تلبث هذه الشكوك أن تزول وتضيع ويبقى الدين والعلم والحكمة .

فالناس تتفاوت مراتب استعدادهم لتلقى ذلك الفيض الإلهى ، وكل يمسك منه على قدره ، وكل ينتفع وينفع على مقدار ما وهبه العزيز العليم من قابلية للانتفاع بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هدى ومن نور . وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب

الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

ومعنى قول الله سبحانه «يذهب جفاء» أنه يجفؤه السيل والريح ، ويطرحه ويرميه ، ولا يبقى منه شيء ، وعلى ذلك فجفاء مصدر كالجفء خرج مخرج الاسم ، وكذلك تفعل العرب فى مصدر كل ما كان من فعل شيء اجتمع بعضه الى بعض ، كالرقاق والحطام والغثاء ، كما فعل فى قولهم أعطيته عطاء بمعنى الاعطاء .

وقد نكر الله الأودية لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض الأودية دون البعض .

وقوله تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » عبارة جمعت أنواع الفلزات جميعها ما عرف منها وما لم يعرف .

ومعنى « كذلك يضرب الله الحق والباطل » كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ؛ ومعنى كذلك يضرب الله الأمثال ، كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ، فحذفت كلمة الأمثال فى الأول ، وحذفت كلمة الحق والباطل فى الثانى لدلالة الكلام على ذلك كله عند من يعرف العربية بمقدار ما يفهم الخطاب .

ولما ضرب الله المثل للحق والباطل ، انتقل الى بيان ما لأهل الحق من ثواب ، وما لأهل الباطل من عقاب ، حين اقتضته حكمته ومشيئته ، فقال عز من قائل :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم ، وبئس المهاد » .

استجابوا لربهم : أجابوا داعى الله فآمنوا به وبرسوله ، واتبعوا النور الذى أنزل إليهم ، وقبلوا الدعوة الى الحق وعاهدوا عليه ،ووفوا بالعهد وأدوا الأمانة ، وصار الدين خلقا لهم ؛ فأقامـوا العبادات وأحسنوا المعاملات . هؤلاءهم السعداء الذين راقبوا الله ، فلهم عند الله المثوبة الحسنى الخالية من الشوائب والأكدار ، المقرونة بالرضا والرضوان ، فلهم منه النصر فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة .

أما الذين لم يجيبوا دعوة الله ، وهم الأشقياء ، فسيكونُ حالهم فى الدار الآخرة من الضيق والعنت والشدة والـكرب بحيث لو ملك أحدهم مافى الأرض جميعا وملك مثله معه وقَبِل منه الفداء من العذاب لافتدى نفسه منه بـكل ما يملك ، وسيحاسبون حسابا عسيرا سيئا بحيث لايغفر لهم شىء من ذنوبهم ، وستظهر لهم فعالهم الذميمة وملـكاتهم الرديئة الخبيثة التى كانت خافية عليهم من قبل لاشتغالهم باللذات عن عالم الحق الباقى ، وسيكون حسابهم لنفسهم أيضا عسيرا ويقول أحدهم : يا ليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ثم يقذف فى جهنم فتكون مأواه ومصـيره ، وهى مهاد سىء وفراش ردىء خبيث ، وبئس المهاد جهنم !

« أفمن يعلم أنَّ ما أنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب » .

مثَّـل الله للحق بالمـاء وللباطل بالزبد ، والفرق شاسع وبعيد بين المـاء والزبد ، وكذلك الفرق بعيد بين من يعلم الحق ويبصره ويستجيب لربه ويلبى داعى الله ، وبين الجاهل الذى لم يستبصر ولم يجب داعى الله ، بقدر ما بين المـاء والزبد وبين الحق والباطل ، وهذا البعد يوجب عـدم الاشتباه ، ويوجب الاختلاف وعدم التماثل . فالذى يسوى بين العالم المعترف بالحق وبين الجاهل المنكر ، محل للزجر ، ومحل للانـكار .

والمعنى أهـذا الذى يعلم أن الذى أنزله الله عليك حق فيؤمن به ويعمل

بما فيه كالذى هو أعمى لا يعرف مواقع الحجة ولا يدرك ما فيه من نظام وجمال وما فيه من حكمة وما فيه من علاج للجماعة البشرية وربا ط بربطها ويقوم حياتها ؟ ! فالاستفهام للانكار والتوبيخ . وقد جعل الله العالم بصيرا لأنه يسير على هدى ، يأمن العثار ويأمن الوقوع فى المهالك ، وسمى الجاهل أعمى لأن الأعمى يفسد ما فى طريقه إذا سار ، وقد يتردى فى حفرة أو بئر فيهلك .

وقد بين الله أن هؤلاء الذين لا يؤمنون ليس لهم عقول تصل الى لباب الأمر وتجاوز قشوره وترتب الأدلة وتنصاع للبراهين وتتعظ بكتاب الكون وآياته وما أودعه الله فيه من نظام وجمال ، وإنما يتذكر أولو الألباب الذين يعملون على مقتضيات العقول فينظرون ويستبصرون .

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

رجع الحديث فى هذه الآيات إلى بيان أحوال السعداء ، فذكر أوصافهم وذكر جزاءهم وما أعد لهم ؛ فمن أوصافهم الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق. والعهد كل شيء التزمه الانسان بالفطرة أو بالقول أو بدلالة العرف والقوانين.

وقد ركز فى الفطرة التزام النظر فى الأدلة والآيات ، وركز فى الفطرة الامتثال لما تمليه الأدلة وتدل عليه الآيات ، وقد نصب الله من الدلائل على وجوده وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته فى تفاصيل الخلق ونظام الخلق ما فيه مقنع وما فيه غنى لأولى الألباب ، وأرسل الأنبياء وأيدهم بالبراهين الدالة على

صدقهم ، ولا عهد أوثق من حجة وآكد من برهان ، فهذه الأدلة عقلية وسمعية يجب الوفاء بعهدها ويجب امتثال أحكامها .

والإيمان بالدين عهد بالدين ، وعهد بكل ما اشتمل عليه الدين من عبادات وأحكام للمعاوضات والمعاملات ، وعهد بكل ما اشتمل عليه من خلق ونظام للجماعة البشرية .

وهناك عهود للجماعات يدل عليها العرف وتدل عليها القرائن ، وهناك عهود قولية وعهود كتابية ، كل هذه العهود يجب الوفاء بها ، والوفاء بها من صفات السعداء ؛ فقوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » ليس وصفا وحده وإنما هو مؤكد للوفاء بالعهد ، لأن من وفى بالعهد فقد حفظ الميثاق ، ومن نقض الميثاق فقد نكث بالعهد .

ومن أوصافهم أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، والذى أمر الله به أن يوصل هو رعاية الحقوق الواجبة لله وللعباد وللنفس ، فيدخل فيه صلة الأرحام وصلة القرابة والجيران وجميع المؤمنين الذين اعتبرهم الله إخوة بقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » فيعينهم ويدفع الأذى عنهم ، ويكتم سرهم ويذيع خيرهم ، ويستر عورتهم ، ويحفظ أموالهم وأعراضهم ، ويرشدهم الى طرق الخيرات . وليس هذا وصفا زائدا على الوفاء بالعهد بل هو داخل فيه ، لكن جرت سنة القرآن أن يبرز بعض الأوصاف الفاضلة ويخصها بالذكر بعد التعميم تنويها بشأنها وحثا للناس عليها ، وقد يذكر منها طائفة فى موضع وطائفة أخرى فى موضع آخر مراعاة للمناسبات ووفقا للأحوال . ويقال هذا فى باقى الأوصاف الآتية .

ومن أوصافهم أنهم يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فهم على الدوام مستشعرون خوفه ، ومستول عليهم جلاله ، يخافون — مهما أتوا به من طاعة وعبادة — أنهم قصروا فيها أو أن الأخلاص لم يكن كاملا فيها ، ويلاحظون ذلك الجلال الالهى والعظمة الالهية ، ويخافون على الخصوص سوء الحساب ، وقد تقدم بيان معناه .

وهـذا الوصف كله هو وصف لعامة المؤمنين ، أما خاصة المؤمنين فلا يطلبون إلا رضاه ودوام اللذة بمشاهدة نوره وورد المعارف الالهية والفيوض الربانية ، ولا يعنيهم شيء بعد ذلك من عذاب وثواب ونعيم وعقاب ، فهم فانون فى الحب ، غارقون فى العشق ، يبهرهم جماله ، ويخيفهم جلاله .

ومن أوصافهم الصبر ابتغاء وجـه الله ، يصبرون على العبادات وعلى ترك المعاصى إذا نازعتهم النفس وحفزتهم الشهوات ؛ ويصبرون على الفقر والهموم والاحزان والامراض ، وعلى معاشرة الخلق واحتمال أذاهم ، وعلى شماتة الأعداء ؛ وعلى الجملة يصبرون على كل مـكروه ؛ يصبرون على كل ذلك لأن الصبر صفة من صفات الخير وخلق من الأخلاق الفاضلة ، وخصلة يرضاها الله سبحانه ، فهم يصبرون ابتغاء وجهه وطلبا لرضاه ، لا ليثنى عليهم بأنهم صابرون ، ولا لخوف شماتة الأعداء ، ولا لأن الجزع لا يرد مكروها ولا يأتى بحبيب .

ومن صفاتهم إقامة الصلاة بتعديل أركانها واستيفاء شروطها والاخلاص لله فيها ومراقبته والفناء فيه .

ومن صفاتهم الانفاق سرا وعلانية مما رزقهم الله ، فهم لا يحرصون على العلانية للرياء ، ولا يؤخرون الانفاق الى التمكن من السر ، بل يغيثون الملهوف على أى نحو من الانحاء عند الحاجة الى العون ، ويؤدون الزكاة المفروضـة وحقوق القرابة والرحم ، ويواسون اليتامى والضعفاء وذوى الحاجة ، ويقومون بحظهم فى خـدمة المجتمع والوطن كلما دعا الداعى وطرأت الحـاجة والضرورات . والانفاق على هذه الصفة من أدل الأمور على طهارة النفس ، وعلى عدم الأثرة والأنانية ، وعلى حب الجماعة البشرية ، فان المال محبوب بطبعه عند الانسان يرى أن ادخاره للحاجة عقل وأن جمعه فخر ، وأنه وسيلة للوصول الى الرغائب ووسيلة تحقيق اللذات والشهوات ، فاخراجه لحاجة الناس والزهد فيه فضيلة من الفضائل الانسانية التى يحبها الله والتى أكثر من ذكرها وقرر أنها من صفات المؤمنين السعداء وصفات المفلحين المتقين .

ومن صفاتهم أنهم يدرءون بالحسنة السيئة ؛ أى يدفعون السيئة تصل إليهم

من غيرهم بالكلام الحسن ، ولا يقابلون الشر بالشر ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، وإذا أذنبوا تابوا .

هذه هى صفات السعداء ، وهؤلاء لهم « عقبى الدار جنات عدن » يعنى أن أعمالهم تجعل عاقبة أمرهم فى الدنيا جنات عدن فى الآخرة . وجنات عدن هى دار الاقامة الخالدة التى لاظعن عنها ولا فراق ، وفيها النعيم المقيم يدخلونها ويكون معهم فيها الصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فينعمون بالسعادة الشخصية ، وينعمون بسعادة محبيهم وأقاربهم من أزواجهم وذرياتهم وآبائهم ، وينعمون بالأنس بهم . ومن تمام النعمة على الانسان ومن تمام سعادته أن يرى أهله ومحبيه سعداء . وتحييهم الملائكة يدخلون عليهم من أبواب الجنة المتفرقة يقولون لهم : سلام عليكم بما صبرتم . ومعناه أن الكرامة التى أنتم فيها ، وهذه الخيرات التى تستمتعون بها لم تصل إليكم إلا بالصبر على طاعة الله ، وعلى أداء الأمانات لأهلها ؛ لقد احتملتم متاعب الحياة الدنيا فوجب لكم أن تستريحوا الآن ، ولنعم عقبى ما عملتم فى الحياة الدنيا ما أنتم عليه فى هذه الدار الآخرة من سرور دائم ونعيم مقيم !

هذه الصفات التى استحق بها أهلها عقبى الدار هى الصفات التى أعلت شأن الجماعة الاسلامية ، وأورثتها العزة والمجد ، ووحدت بينها فى الآمال والرغبات .

فلتنظر أمة من التى مزقتها الأهواء ، وفرقتها المطامع الكاذبة ، وسحرتها الوعود الماكرة ، ولتوازن بين حاضرها وماضيها ، ولتتدبر ما هى الأسباب التى ألهتها وأضلتها ، وما هى الأسباب التى فرقتها شيعا ، وجعلتها أحزابا .

ألا فتية من عصبة المؤمنين يهبون أنفسهم لله ، يعالجون أمراض المجتمع الاسلامى لايبغون إلا وجه الله ! ألا يشعر المؤمنون الآن بأن الواجبات الدينية والوطنية تدعوهم الى الوحدة وطرح الاحقاد ، وتدعوهم الى التناصر وترك الشقاق ! المرجو هو الله ، وهو على كل شىء قدير ؟

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » .

عرضت الآيات الكريمة السابقة لقصة قارون وما كان من شأنه ؛ فبينت أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وتكبر ، وأن الله آتاه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، وأنه كان بطرا فرحا بما أوتى من مال وولد ، ناسيا حق الله لا يعترف بنعمته عليه ، معتقدا أنه أوتى ما أوتى من بسطة فى المال والجاه بما كان عنده من علم ومن جد واجتهاد ، وأن قومه حاولوا أن يبينوا له طريق الرشاد فقالوا له : لا تفرح فانه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن اليها ونسى الآخرة ونسى ما فيها ، أما من ذكر الآخرة وذكر المصير والمرد الى الله ، وذكر أن الدنيا قصيرة المدى وأن أمورها قُلب لا تدوم على حال ، فمن يسر الى فقر ، ومن عز الى ذل ، ومن صحة الى مرض ، وهكذا دواليك ، من ذكر كل ذلك فانه لا يركن اليها ولا يفرح بها .

ونصح له قومه بأن يفعل الخير ، وأن يحسن الى العباد كما أحسن الله اليه ، وأن يبتغى الدار الآخرة فيما خول من نعمة ، وأن يستمتع من الدنيا بما أحله الله له ولا ينسى نصيبه منها .

قدم قوم قارون لقارون كل ما استطاعو من موعظة ، وأسدوا اليه ما شاء الله من نصيحة ، ولكن القلوب إذا رين عليها لم تتفتح لموعظة ولم تستجب لنصح ، فقال قارون لقومه : لقد نلت ما نلته بجدى وبما لدى من علم

لم يقدر لغيرى . وكان اللائق بحاله إذ ادّعى ما ادعى من العلم أن يذكر أن الله قد أهلك من قبله من القرون من كان أشد منه قوة وأكثر جمعا .

ثم قص الله علينا أن قارون خرج على قومه فى زينته من خدم وحشم وأتباع وأعوان ، ومن مظاهر الثراء التى تغرى ضعاف العقول وتفتن قصار النظر ، فقال جمع ممن فتنوا بهذه المظاهر : ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ؛ وقال آخرون ممن يعلمون قيمة هذه المظاهر الخلابة ، ويعرفون أنها برق خلب ، وأن ما عند الله خير ثوابا وخير عقبا : ويلكم ! ثواب الله خير مما أوتى قارون وأبقى من كل ما ترون من مظاهر لا ينبغى أن يقيم لها عاقل وزنا .

ثم بينت الآية الكريمة أن ما كان عليه قارون من جاه وسلطان لم يغن عنه من بأس الله شيئا إذ جاءه ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من قبيل ينصرونه من دون الله ، وما كان بعلمه ، وما أوتى من جد وبصر ، من المنتصرين ، فأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس وفتنوا به يقولون : لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا إنه لا يفلح الكافرون ، وإن ما ينعم الله به على الناس قدر مقدور ، فلا الكرامة توجب البسط ، ولا الهوان يوجب القبض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير .

قص الله علينا هذه القصة للعظة والاعتبار ، ولنعلم أن الدنيا دار تحول وانتقال ، كلها متاع الغرور ، فما الجاه وسعة السلطان براد قدر الله ، ولا مانع من بأس الله ، ولا بحائل دون عذاب الله ، وقد خلت المثلات فى الأمم ، وتلك سنة الله ولن تجد لها تبديلا ، وليست الدنيا بدار اطمئنان أو قرار ، ولا يأمن فيها ولا يركن اليها إلا جاهل بأمرها غافل عن شأنها ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وقص الله علينا هذه القصة لنؤدى حق الله ونشكره فيما أعطى من نعمة ، وأن نحسن الى أنفسنا بالأعمال الصالحة ، ونحسن الى العباد ، ولنعلم أن البغى مرتعه وخيم ، وأن للطغيان عاقبته المحتومة من زوال النعمة وحلول النقمة .

ثم جاءت هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » بعد ما ذكر الله من قصص قارون ، وبعد ما بين من شأنه ، وقد كان فى قصته ذكر الدار الآخرة حين أسدى اليه قومه النصح بأن يجعلها غايته وبغيته والمقصد الأسمى الذى يجب أن يجعله نصب عينيه فى جميع أعماله ، كما كان فيها ذكر الدنيا وأنها وسيلة للآخرة ومتاع يقصد به ما أعد له من المنفعة ، وأن الآخرة هى دار الثواب الذى أعده الله لمن آمن وعمل صالحا — جاءت تلك الآية الكريمة لتعظم من شأن تلك الدار ، وتفخم من قدرها ، وتبين أنها أعدت لمن لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا ، ولا ظلما ولا عدوانا ، ولا بطرا ولا تسلطا ، ولا يريدون تكبرا عن الحق وتجبرا .

والعلو الممقوت : العز والترف الذى يصحبه بغى وعدوان وتكبر وخيلاء ، أما العلو الذى يصحبه الاحسان والتواضع ويصحبه الكرم والمروءة فلا يأباه الدين . والفساد يشمل أنواع الشر جميعها ، ويجمعها مخالفة الله فى أمره ومجاوزة الحدود .

قد جعل الله نعيم الدار الآخرة لمن لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا ، فربط الجزاء بعدم إرادة العلو والفساد ، ولم يربطه بالعلو والفساد نفسهما مبالغة فى طلب البعد عن العلو والفساد ، لأن الشخص إذا دار بخلده أن مجرد إرادة العلو والفساد كاف فى الطرد عن رحمة الله فانه يحذر العلو والفساد أشد الحذر ، ويحذر الوقوع فيهما ، بل ويحذر إرادتهما والقصد اليهما .

ونظير هذا أن الله سبحانه لما حذر من الظلم ومعاشرة الظالمين ، حذر من الركون اليهم ، وجعل الركون سببا فى مساس النار ، فقال « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » . وقد روى عن الفضيل أنه قرأ هذه الآية فقال : ذهبت الأمانى هاهنا . وروى عن على رضى الله عنه « إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل فى هذه الآية » .

وبعد أن ذكر الله عز وجل أن هذه الدار أعدت لمن صلح أمرهم فأحسنوا

العمل ولم يريدوا فى هذه الدار علوا ولا فسادا ، ختمت الآية الكريمة بقوله : « والعاقبة للمتقين » ، وهم من كان لهم دون المعاصى وقاية ، ودون الشرور حاجز ، فاتقوا الله عز وجل ، وأدوا فرائضه .

وقد ذكر الله للمتقين فى كتابه أوصافا كثيرة متفرقة فى مواضع مختلفة يرجع أمرها الى الايمان بالله ورسله ، والإيمان بالغيب ، والقيام بما فرضه الله على عباده واجتناب ما نهى الله عنه ، مع الخشية من الله ومراقبته فى جميع الأعمال ، ومع الاحسان الى العباد جميعهم إلا من نهى الله عن موالاتهم ممن حاد الله ورسوله وآذى المسلمين فى دينهم وأوطانهم ، ومن نهى عن الركون اليهم من الفجرة والكفرة .

ومما ذكر الله من أوصاف المتقين ما اشتملت عليه الآية الكريمة « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

وما اشتمل عليه قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

هؤلاء الذين اتقوا ربهم لهم عقبى الدار : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وقرب منه ورضوان . وهذا هو ما يصح أن يسمى عاقبة يحرص عليها ويسعى لها ، وهذا هو الذى يسمى الدار الآخرة . أما ما يناله الفجرة من الخزى والهوان فلم يسمه الله عاقبة ، ولم يسم الله مكانه الدار الآخرة .

« من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون »

أخبر الله جل شأنه فى الآية السابقة أنه أعـد نعيم الآخرة للمتقين ، وفى هـذه الآية بين مقادير الجزاء فقال إن جزاء الحسنة ما هو خير منها والسيئة مثلهـا .

والجزاء بالخير يكون بعشرة الأمثال كما جاء فى آية سورة الانعام « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ، ويكون بأكثر كما فى قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء »

وذكر العدد لا يقصد منه التحديد ، سواء فى العشر أو فى الأكثر ، وقد عرف من لغة العرب ذكر العدد دون أن يكون له مفهوم ، والغرض هنا المبالغـة فى الاحسان وإعطاء المحسن أكثر ممـا يستحق بعمله تفضلا من الله سبحانه ، وخزائن رحمته لا تنفد ، وموارد عطائه لا تنضب .

أما السيئة فجزاؤها مثلها . وإذا كانت الحسنة تجازى بعشر أمثالها أو أكثر والسيئة تجازى بمثلها ، فالويل كما قيل لمن غلبت آحاده أعشاره . وفى الحديث « يقول الله إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها حسنة وإن لم يعملها ، فإن عملها فعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها ، وإن عملها فسيئة واحدة » .

وقد رغب الله فى الصالحات بإكثار جزائها ، ولطف بالعباد فلم يجاز على السيئة إلا سيئة واحدة ، لما علم ما فى طبيعة الانسان وغرائزه من النزوع الى الشهوات والخروج عن الحدود .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد . قل ربى أعـلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » .

بعـد أن قرر الله فى الآيات السابقة أحـوال العباد على وجه عام ، التفت فى هــذه الآية الـكريمة الى رسوله الـكريم ومصطفاه محمد صلى الله عليـه بصفة خاصة .

أنزل الله القرآن على النبي وأوجب عليه حمله وتبليغه والعمل بمـا فيه ،

وأوجب عليه الدعوة الى ما اشتمل عليه من الحق والهدى وجدال المعاندين المكابرين ، وأوجب عليه حياطة الدعـوة وحمايتها وقتال المعتدين على حرية الدعوة .

ندبه الله لهذا كله ، وتلك مهمة شاقة تحتاج الى الشجاعة والصبر والفطنة والحذر ، وتحتاج الى سياسة ماهرة حازمة فى تدبير أمور الخلق فى الحرب والسلم ، وتدبيرعلاقات الأمة الاسلامية بعضها مع بعض ، وتدبير علاقاتها مع غيرها من الأمم ، وقد لاقى فى سبيل ذلك من العنت ما لاقى ، ومن الشـدائد والأحن ومن العداوة والبغضاء ماحدثنا به التاريخ ، وقام بما ندب إليه على أكمل وجه وأتمه . وكتب السير طافحة بما أداه ، وناطقة بما لاقاه .

وقد أعد الله له من الجزاء ما يناسب حسناته ، فقال : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد» أى معاد خاص بك لا يكون لغيرك من البشر، فلم يعمل أحد ما عملت ، ولم يحتمل أحد ما احتملت ، ولم يناضل أحد عن الحق مثل ما ناضلت ، وقد فضلت إخوانك الأنبياء بأنك بعثت الى العالم جميعه الى أن تقوم الساعة ، فأنت مصلح الانسانية وحدك ، أما هم فنهم من أرسل لأمة خاصة ، ومنهم من أرسل لأمم الى أجل محدود .

ثم زاده عز وجل بعد هذه البشارة بشارة أخرى ، وهو أنه حمل الهدى والنور ، وأن معانديه وجاحدى دعوته فى ضلال بين؛ وأمره أن يخبر المعاندين بهذا على هذا الأسلوب الكريم الذى يفل حدة العناد ويجذب المعاند ويكسر من شدته ويفل من غربه ، فقال « قل ربى أعلم من جاء بالهـدى ومن هو فى ضلال مبين » .

يعنى بمن جاء بالهدى نفسه الطاهرة ، وبمن هو فى ضـلال مبين معانديه الجاحدين . وعلى غرار هذا الأسلوب الكريم جاء قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

وكل واحد يدرك مايحدثه مثل هذا الخطاب ؛ فاذا قلت لمحدثك المخطىء :

أحدنا مخطىء فلنبحث لنصل الى الصواب ، كسرت منه حدة الجدال ، وفللت غرب العداوة والخصومة ؛ أما إذا قلت له : أنت المخطىء ، وأنت فى ضلال مبين ، فقد زدته عنادا ، وقويت فيه روح البغضاء .

فليتدبر المسلمون وليقتدوا بكتابهم فى التخاطب عند التخاصم . وأين هـذا مما يحدث للعلماء عند الجدل فى الفقه أو الكلام من الرمى بالكفر والتنابز بألقاب الضلال والفسوق !

شرح الله صدر نبيه بهذا كله ، ليحفزه على المضى فيما هو بسبيل منه من الدعوة والتبليغ ، وليسليه عما يناله من أذى المعاندين ، ويهجن ما عليه المشركون من المقاومة للدعوة والصد عن سبيل الله .

« وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيراً للكافرين . ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت اليك ، وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر . لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » .

بعد أن بين الله مكانة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وذكر أن له معادا يخصه ومنزلة لم تقدر لأحد غيره ، ذكره أن الفضل الذى مُنحه وأعطيه من إنزال القرآن والتكليف بتبليغه ، وما أحاط بذلك من أنواع الكرامات لم يكن ليتوقعه ويرجوه ، بل حصل ذلك كله رحمة من الله ولطفا وإحسانا . فمعنى قوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك » ما كنت تتوقعه وترجو حصوله ولكن نزل رحمة من ربك . وهذا التذكير يشعر بعظم النعمة التى تشعر بعظيم الشكر عليها . وقد عرف محمد صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة وأدى صلوات الله عليه حقها .

وبعد أن عرفه منزلته عنده ومقدار نعمته التى خصه بها ، نهاه عن أمور كما طلب منه أمورا :

نهاه عن أن يكون ظهيرا ونصيرا للكافرين فى أى شأن من الشئون التى

تعـالى من قدرهم وتضعف أمر المؤمنين ، ونهاه عن أن يطيع الـكافرين إذا صدوه عن آيات الله وصدوه عن التبليغ والدعوة وحماية التبليغ والدعوة ، وطلب اليه المثابرة على الدعوة وألا يعين المشركين فى شأن فيكون منهم ، وألا يدعو مع الله إلها آخر .

خوطب النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس محمد ، بحكم مكانته وما قدم من أوصافه وجزائه ، بمتصـور أن يكون مع المشركين ، وأن يدعو مع الله إلها آخر ، أو أن يتوانى فى الدعوة وهى وظيفته وعمله . وجه اليـه الخطاب والمقصود بالخطاب غيره ، إياك أعنى واسمعى ياجارة .

واذا كان محمد وهو أكرم الخلق يوجه اليه مثل هذا الخطاب على هذا النحو فان العباد يجدون فى البعد عن هذه المنهيات الشنيعة التى نهى عنها من لايتصور وقوعها منه ، ومن ناحية أخرى فان الخطاب على هذا النحو يقطع أطماع الطامعين ، ويهيج النبى عليه السلام ويلهب غيرته ويقوى عزيمته .

وإذا كان أكرم الخلق وأعلم الناس بالتوحيد يطلب منه ألا يعتمد على غير الله وألا يتخذ غيره وكيلا حتى يـكتمل توحيده ، فان هذا يوقظ الوجدان وينبه العباد الى أن التوحيد الخالص صعب المركب بعيد المنال ، ويوجب على العباد التدبر فيما هم عليه من نداء غير الله من أموات وأحياء ، والاستعانة بغير الله من أموات وأحياء ، والاتـكال على الأسباب التى لم يسنها الله ، وعدم التفكير فى أن الله هو المعطى المـانع الضار النافع .

والحق أن هذا الخطاب من أشد القوارع على المسلمين ، وأقطع الأدلة على المتوسلين .

بعد أن طلب منه ما طلب بين له السبب والعلة فقال : «لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحـكم واليه ترجعون » .

ومتى كان الأمر على هذا النحو : إله واحد له الوجود الحق ، وله التصرف ، وله ملك السموات والارض ، واليه المرجع والمصير ، وجب أن يدعى وحده ، وأن يستعان به وحده ، وأن يطاع أمره ويسمع نهيه ، وأن يلقى اليه العبد

مقاليده ، فهو الذى يطعم ويسقى ، وهو الذى يميت ويحيى ، وهو الذى يمرض ويشفى ، وهو الذى يعز ويذل ، وهو الذى يغفر الخطيئة يوم الدين ، وغيره هالك فى ذاته لأن وجوده من الله ، ثم بعد وجوده يهلك أيضا ، ومرده الى الله ، وليس لغيره شأن فى الآخرة التى يفر فيها المرء من أخيه وأمه وأبيه ولا ينفعه إلا ما قدم من عمل صالح مقبول .

نسأل الله أن يجعلنا بالتوحيد ، وأن يرزقنا ثمرات التوحيد ، وأن يحشرنا مع الموحدين ؟

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام
فى تحية العام الهجرى الجديد

سيدى رسول الله محمد بن عبد الله !

عند ما يطل على الكون هلال العام الهجرى يذكر المسلمون حادثا من أبسط الحوادث فى صوره ، لكنه من أجل الحوادث خطرا فى مغزاه وفى أثره ؛ حادث هجرة النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من مكة موطن آبائه وعشيرته ، وأول أرض مس جسدَه ترابُها واستقبله هواؤها ، وأول مكان اتصل فيه بعالم القدس وبالملأ الأعلى وتلقى رسالة ربه على يد ملائكته . يذكرون هذا وما أحاط به ثم يحمدون الله على فضله ؛ فقد وجهته العناية الإلهية هذه الوجهة لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى القربى ، وليجد حرية الرأى والعقيدة فى مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم حبه ، وملأ أفئدتهم جلاله ، واستعدوا للذود عن حياض الإيمان ومحاربة الباطل ، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وهم الذين نزل فيهم « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

يثير حادث الهجرة تصور معركة عنيفة بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والحلم والجهل ، والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والرشد والغى ، والاستقامة والفجور ، وبين عدد قليل سلاحه الحجة والبرهان ، واليقين والايمان ، وعدد كثير يعتمدون على تقليد الآباء ، ويضعون أصابعهم فى آذانهم لئلا تنفذ إليها الحجة ، والأغطيةَ على عيونهم لئلا تبصر نور الحق ، ويعتمدون على القوة ؛ وتتمثل أمام النفس صورة الحق يكاد يخنقه الباطل ويتركه على الأرض صريعا لا يقوى على النضال ، وإذا بنفحة من قبل الحق تهب ، وإذا به ينهض

وينجو ، وإذا به يكر ويهاجم ، وإذا به يظفر ، وإذا الباطل صريع ، وأهله في الهالكين .

وحادث الهجرة يشعّب الفكر ويقسّمه ، فيتجه إلى نواح مختلفة تتصل بآثاره وبصاحبه وبالنور الذي جاء به والكتاب الذي أنزل عليه . وفي هذه النواحي جميعها جمال مشرق يأخذ بالأبصار ، ويملك على النفس أمرها ، ويعيا العقول دون اكتناهه واستقصائه ؛ وستتكشف هذه النواحي للناس شيئا فشيئا ، وتتم الهداية بعد أن تتم المعرفة ، ويدرك الناس السر في أنه كان خاتم المرسلين ، ويدركون سر قول الله سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

رسولَ الله صلوات الله وسلامه عليك ! أنت مثال الانسانية الكاملة ، والجامع لأشتات فضائلها ، وأنت مشرق الذات الإلهية ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، أفاض الله عليك ما شاء ، وأفضت على الناس ما هم في حاجة اليه ؛ فجلوت الظلمات ، وأزحت الشكوك والأوهام والشبهات ، وعلمت العلماء أدق نظم الكون ، والمصلحين أكملَ نظم الاجتماع ، والمشترعين أصلحَ قواعد التشريع ، وأريت الناس كيف يكون القائد المدرب الرحيم ، ورئيس الدولة العادل الحكيم ، وأريت الناس المثال الكامل للأخلاق الذي يضم القلوب المتنافرة ويجمع بينها ، وينفي القذى من المجتمع ، ويطهره من المضللين والمفسدين .

وضعت أساس دولة من أقوى الدول وأقومها وأعدلها وأرحمها ، من شعوب مختلفة اللون والجنس واللغة والدين والعادات والطباع والأخلاق ، ووحدت هذه الشعوب وربطتها برباط من الدين والخلق ، وعاشت عزيزة مهيبة ما عاشت متمسكة بهديك ، مستضيئة بنورك ، عاملة بكتاب الله وسنتك ، ولم يصبها ما أصابها من الوهن إلا بعد أن نسيت هديك وتركت نهجك ، وأعرضت عن النواميس الإلهية في الحياة الاجتماعية ، وأعرضت عن قواعد العدل . والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

احتملت ما احتملت من الأذى غير مبال به ، إذ كان الله عنك راضيا ، وتجشمت ما تجشمت فى مطاردة الباطل إرضاء للحق ، وكانت هذه المحن كلها تمر تحمل فى طياتها نعم الله ومنحه ، وجوزيت بالحسنى فى الدنيا ، وستجزى أحسن ما يجزى به النبيون والمرسلون ، صلوات الله وسلامه عليك .

يا صاحب الجلالة :

يحتفل المسلمون بالهجرة ، وقد أردتَ أن تكون حفلة الأزهر هى الحفلة التى تحظى بشرف شهودك ؛ والأزهر الوفى لك ، والمخلص لعرشك ، والصادق فى حبك ، خقيق بهذه الرعاية ، وجدير بهذا العطف ، وها هو الأزهر ، علماؤه وطلابه ، يحيون فيك الملك الاسلامى العادل الذى يحب الاسلام والمسلمين ، ويحب الحق ويكره الباطل ويطارده . ويسعدنى أن أقول : إنك مثال المسلم الكامل فى الصبر على ما ينالك من ألم وأذى فى سبيل بلادك وفى سبيل الحق ، ومثال المسلم الشجاع الذى لا يهن ولا يحزن ولا يجزع ، ومثال المؤمن بعاقبة الصبر ، وما أعد للصابرين .

وقد قال أحد الحكماء :

لا يحسم العقلُ ، والدنيا تساس به   ما يحسم الصبر فى الأحداث والنوب

أبقاك الله وأعزك .

مولاى :

كشف الغطاء عن أعين الأمم فلم تعد تطيق ما كانت تحتمله من قبل ، ولا تبصره ، وكشف الغطاء عن أعين الأمم الاسلامية ، وأدركت ما اقترفته من الإثم بالتفرق ، وما جنته بالتفريط والبعد عن سنة الله فى حياة الأمم ، والبعد عن هدى الله ونهج رسوله ، وأبصرت ما كان لها من مجد باذخ وعز :

رسا أصله تحت الثرى وسما به   الى المجد فرع لا ينال طويل

فحنت اليه ، وتوثبت لأحيائه . وفى الأفق بارقة من الأمل فى أن تيارات الفكر تتجه الى الاستقامة والعدل فى المعاملة ، والى أن تبنى العلاقات بين

الأمم على أساس التعاون والحب ، لا على أساس السيادة والطغيان . والأمم العربية أدركت ما فى الوحـدة من قوة ، وهى جادة فى تحقيقها لتجعل منها قوة أمام الأحداث التى قد تطغى على التقاليد ، وتطغى على الأوطان ؛ وهذا السعى ، وهذا الجد فى تحقيق تلك الوحدة ، يجعلنا نرجو وحدة أعم وأشمل هى الوحدة الاسـلامية التى طلبها الله حيث يقول : « وإن هـذه أمتكم أمة واحـدة » .

والله المرجو أن يحقق الوحدة العربية ، وأن يحقق الوحدة الاسلامية ، بزعامة الفاروق المحبوب . خـذ يا مولاى بيد العاملين ، وسر على بركة الله ، والله ولى الصالحين .

مولاى :

أتقدم إليك مهنئا بالعـام الهجرى ، داعيا لك بطول البقـاء ، وبعمر مبارك فيه تسعد بما تعمل من خير ، ويسعد الناس بك وبما تقدمه من خير وإرشاد .

وأتقدم بتهنئتى لإخواننا المسلمين على اختلاف ديارهم ومذاهبهم وألسنتهم ، راجيا لهم عزا ومجدا . وأسأل الله العلى القدير أن يعيد إلى العالم سلاما شاملا أساسه العدل ، وقوامه الرحمة والانصاف ، وأن يبعد عن الظافرين زهو الظفر ، وغرور القدرة ، ويوفقهم لخير الناس أجمعين ؟

مرحلة من الحياة تقضت

تمر الأيام على الخلق فتبلى خيوط من نسيج الحياة بقدرها ، وكل عام يمر فانما هى مرحلة من مراحل الحياة تقضت ، ونذير بانقضاء مرحلة أخرى ، وهكذا الى أن تأذن شمس الحياة بالأفول .

يفرح الناس بحلول عام جديد ، ويتبادلون التهنئة غافلين عما انقضى من مراحل الحياة ، وعما ذهب من القوة والشباب ؛ وما فرحهم إلا بالبقاء الى العام الجديد تبعا لأمر الغريزة التى تحب البقاء ؛ وكان من الحق أن يعزى بعضهم بعضا عما فات ، لكنها الغفلة الحلوة تنسى الناس مصادر الحزن ؛ وقد قال أحد الشعراء :

أأفجع فى الشباب ولا أعزّى   لقد غفل المعزّى عن مصابى

تقضى العام ، وأقبل شهر رمضان بشيرا أو نذيرا بعام آخر . ذهب الماضى بما انطوى عليه من نعيم وبؤس وفرح وهم ، وذهب ما اشتمل عليه من صنوف الشرور وألوانها المختلفة ، فلم يخل صرفه رضيعا ولا طفلا ولا فتى ولا كهلا ولا شابا ولا شيخا ، ولم يخل صرفه ناسكا ولا فاتكا ولا عالما ولا جاهلا ؛ وقد فرح فيه أقوام ، وحزن آخرون ، والجديد أخو القديم .

ألا إنما الأيام أبناء واحد   وهذى الليالى كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة   خلاف الذى مرت به السنوات

وهكذا تمر الأيام والسنون على العباد فلا يستمتع بها حقا إلا أقل الناس حظا فى الدنيا وأقل الناس شأنا فيها ؛ والذين لا يعتدهم الناس ولا يقيمون لهم وزنا ، والذين يراهم الناس فى شقاء دائم وعذاب مضن ، لكنهم أسعد الناس عند الله وعند أنفسهم ، وأرجح الناس وزنا عند الله وعند أرباب البصائر والعقول ؛ إنهم يمرحون فى الجنة ونعيمها وهم فى الدنيا لم يفارقوها ؛ وإنهم ملوك العالم وليس من الدنيا شىء فى أيديهم ؛ نفوسهم عزيزة بالله ، غنية بالله ،

يسعدون بالقرب منه ، ويسعدون بالمعرفة والحكمة ؛ آلامهم سعادة ، وفقرهم غنى ، وشقاؤهم نعيم ، لهم محبوب واحد إذا رضى فرضاه الجنة ، وإذا غضب فغضبه النار ؛ ذلك المحبوب هو الله الواحد القهار .

كل الناس سواء فى العلم بقصر الحياة ، وبأن مصير كل فرد الى فناء قريب ، يستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، والعالم والجاهل ؛ أما الكافرون باليوم الآخر ، والكافرون بمعاد تجزى فيه كل نفس ما أسلفت وتحاسب على ماقدمت ، والذين لا يرون إلا جنة الدنيا ونعيمها ونارها وجحيمها ، فليس لنا حديث معهم عن رمضان أو عن شعبان ، لكن الحديث مع المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب وينتظرون مردا الى الله ومعادا .

ضرب الله مثلا للحياة الدنيا بماء نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأخذت الأرض زخرفها وازينت ، ثم جاءها أمر الله فصارت حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، ثم أصبح النبات هشيما تذروه الرياح ؛ وجعل الدنيا متاع الغرور ، والدار الآخرة هى الحيوان .

واذا نظر كل واحد الى أنه سيخرج عما يملكه ويعتز به من مال وثراء ودور وعقار ، وعما حوله من أهل وولد وعشيرة وجند وحسب ونسب وإمارة وملك - سيخرج عنه بعد فترة قصيرة جدا هى حياته القصيرة ، ثم يحاسب عليه ويذهب بعد الحساب الى ما أعد له من جنة أو نار ، ونعيم أو عذاب ، ورضا أو غضب ، أيقن أن الحياة الدنيا متاع الغرور .

وما الحياة إلا وسيلة تتخذ لغرض من الأغراض ، ومتاع يتخذ لفائدة ، فهى كالسيف إن استعملته فى طاعة الله ونصر دينه وإعلاء كلمة الحق والذود عن الأوطان وحفظ الأموال والأعراض ، أعقب المجد والشرف ؛ وإن استعملته فى قتل الأبرياء وإخافة السبيل وسلب الأموال وهتك الأعراض والذود عن الباطل ، أعقب الخزى والعار . وكالسيل إن أحسنت تدبيره فأحييت به الأرض وأنبتت به الزرع وأخرجت به الثمار والرياحين ، أحرزت المدح والثناء ؛

وإن أغرقت به الدور والقرى ، وأغرقت به الحرث والنسل ، وأفسدت به الأرض ، نلت الذم والمقت . وأنت مخير بين أن تفسد وتطغى والمصير النار ، وبين أن تصلح وتقيم العدل وتؤدى الأمانة لله وللعباد ، وأمامك الجنة التى أعدت للمتقين : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .

فى الانسان غرائز وطبائع مختلفة جسمية ونفسية ، وللجسم حاجات وللنفس ميول ورغبات ؛ وقد تجمح هذه الغرائز فتضل وتتعدى الحدود فتظلم ، فلم يتركها الله سبحانه وتعالى دون أن يضع لها الحدود وينظم لها أساليب الحياة وينظم لها أساليب العلاج ؛ والله سبحانه هو العليم بما أودع فى الانسان من قوى وركب فيه من غرائز ، وهو اللطيف بخلقه والمدبر لعباده بحكمته ، فوضع له ما شاء من نظم للعبادة ، وما شاء من نظم للمعاملات والمعاوضات ، وأرشده الى أصول الأخلاق ، وصحح له العقيدة فى الكون وخالقه ؛ فرض عليه أنواعا من العبادة هى علاج للجسم وعلاج للنفس ورياضة للقوى الجسمية والروحية ، آمن بها أهل الايمان الكامل من غير بحث عن أسرارها ، وبحثوا ليطمئنوا ، وأداها الجاهل خوفا من العذاب دون نظر الى فائدتها ، وقد يكون ضجرا منها ، وأنكرها الكافرون والضالون وازدراها العابثون ، وما بالله حاجة الى عبادة الناس والى شكر الناس ، فهو الغنى عن العالمين : « إن تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم » .

وما من عبادة من العبادات إلا والتقوى هى الغرض منها والسر فى فرضها ؛ والتقوى أساسها الخوف من الله ، وهى مصدر الاحسان الى العباد ، ومصدر الأمانة والاصلاح وانتظام أمر المعاملات والمعاوضات بين العباد ، متى وجدت فان أحدا لا يظلم أحدا ، وإن أمة لا تظلم أمة ، ولا يجور حاكم على محكوم ، ولا يخون محكوم حاكما .

فرض الله الصلوات رياضة للبدن والروح ، ومذكرا به ، حتى توجد الرهبة

منه والرغبة اليه مرات فى اليوم ؛ وفرض الصوم رياضة للجسم ورياضة للنفس والروح .

أظهر مافيه من الأسرار ، تعويد النفس الصبر على ماتفقده فى أوقاته المقدرة ، وترويضها على احتمال ألم الجوع والعطش ، وتذكيرها آلام الفقراء والمعوزين وحاجات الضعفاء والمحرومين ؛ وقد بين له الأطباء فوائد صحية ، وبينوا أن مضاره تأتى للأجسام من طريق التغذية فى الإفطار والسحور ، ومن ناحية عدم وضع نظام صحى يناسب الصائمين . أما الصالحون فلهم عنه حديث طويل من ناحية الرياضة الروحية وتصفية النفس وإعدادها للاشراق والفيض ، ولكن الصوم لا تبقى له حقيقة ولا يثمر ثمرته إذا لم يوجد فيه الاخلاص لله ومراقبة الله ، ولم يهذب الأخلاق ، ولم يردع عن الفحش فى القول والعمل ، ولم يردع عن الغش والخديعة والمكر ، ولم يردع عن الاضرار بالناس وأكل أموالهم بالباطل ، ولم يردع عن الغيبة والنميمة والهمز واللمز ، ولم يردع عن البغى والجور والطغيان ، ولا تبقى له حقيقة إذا لم يدع الى الرفق بعباد الله والرفق باليتامى والضعفاء والمساكين . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وهناك أمور ينبغى أن يترفق الفقهاء فيها بالناس ، وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الاسلام ؛ يراعونها فى العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم ، فيقربون الناس من الاسلام ولا يوقعونهم فى الحرج . وعندى أنه من يفطر بعذر ويصرح بذلك أطهر ممن يفطر من غير عذر أو بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى ، يرائى الناس ولا يخشى الله ؛ والرخص فى المرض والرخص للمشقة فى العمل يقدرها أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم وهو إباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم ؛ أما تقدير القدرة وعدم القدرة فهو خاص بالعبد نفسه ولا شأن للعالم فيها .